معالم الرؤية الإسلامية في شعر محمد السيد شحاته (شاعر البراري)

الدكتور

محمد صبحي عبد الفتاح الجمال

أستاذ الأدب والنقد المساعد (المشارك)

بكلية الدراسات الإسلامية بدسوق

العدد الحادي والعشرون

للعام ١٤٣٨هـ / ٢٠١٧م

الجزء الخامس

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية ٦٩٤٠/ ٢٠١٧م

الترقيم الدولي ISSN 2356-9050

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

أحمد الله رب العالمين ، وأشهد ألا إله إلا الله ولي الصالحين ، وأشهد أن محمداً رسول رب العالمين ، خير مبعوث إلى خير أمة بخير دين ، وبعد:

فهذه محاولة للتنقيب عن الادب الإسلامي ، والشعر الذي يستلهم البيان القرآني المعجز، ويستدعي الشخصيات الإسلامية الخالدة ، ويستجلي مظاهر القدرة الإلهية ، ويبعث على التأمل في مجالي الكون ومرائي الطبيعة ، والتعرف على رؤية شاعر مسلم للإنسان والكون والحياة من منظور العقيدة الناصعة والتصور الإسلامي الصحيح بعد أن حانت لحظة المواجهة بين الإسلام وخصومه، وأنتج التحدي للهوية الدينية ألوانا من الاستهانة بتعاليم الإسلام وصنوفاً من الطعن في ثوابت الإيمان ، لذا فقد أصبح الاحتشاد واجباً والأدب الإسلامي ضرورة، وأضحى ترسم خطى النابهين مطلبا حضاريا تعلو به راية العلم النافع والفكر المستنير ، يقول الدكتور صابر عبد الدايم : (ديوان الشعر الحديث يعبق بالتجارب الإسلامية رؤية وأداء ، وما على الأدباء والنقاد إلا أن ينقبوا جادين فاحصين متأملين ، وسيعودون بعد رحلة التنقيب في مفازات الأدب ورياضه الغُنّ وحدائقه الفِيحِ بأثمن الكنوز وأسمى التجارب) [١] .

ولست بحاجة إلى التعريف بالأدب الإسلامي أو الاستكثار من الأدلة على أهميته فهذا ما اضطلع به رواد هذا الفن [٢] وحسبي أن أتجول في (ديوان شاعر

(١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق مطبعة بلال ٢٠٠١ /٧
(٢) ينظر : الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، للدكتور/ صابر عبد الدايم
- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، للدكتور/ علي صبح
- الأدب الإسلامي ضرورة، للدكتور/ أحمد محمد علي
- الأدب الإسلامي، الفكرة والتطبيق للدكتور حلمي محمد القاعود
- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، للدكتور/ عبد الرحمن رأفت الباشا

البراري) محاولاً التأكيد على أن الأدب الإسلامي المنشود هو ما استكمل العناصر الموضوعية والفنية ، ومحاولا التقاط معالم الرؤية الإسلامية لدى الشاعر دون تقيد بالشعر الديني المباشر أو الوعظ الخطابي المألوف ، أو التناول النمطي للقيم الإسلامية الذي أضر بفكرة الأدب الإسلامي واستحال دون قصد سهاما تصوّب نحوه ، ومن ثم فقد جاء هذا البحث مقسماً على النحو الآتي :

- استلهام البيان القرآني
- استدعاء الشخصية النبوية
- التأمل في مجالي الكون ومظاهر الطبيعة
- إسلاميات متنوعة

مع التوقف عند الظواهر الفنية التي توسل بها الشاعر [١] لإبراز تلك الرؤية الفريدة التي جاشت بها نفس شاعرة وعاطفة إيمانية صادقة ، سائلاً الله عز وجل القبول والرشاد ، وصل اللهم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) التعريف بالشاعر : ولد الشاعر محمد السيد شحاته سنة ١٩٠١ في كفر الجريدة بمحافظة كفر الشيخ وتعلم في كتَّابها ثم في الأزهر في مدينة طنطا ، عمل بالتدريس كما عمل بمكتبة بلدية طنطا وأمضى حياته متنقلا بين مدن الدلتا وقراها ، صدرت له عدة دواوين مثل : ديوان شاعر البراري ، نجوم ورجوم ، وحي البراري ، بين أحضان الطبيعة ، مع الدين ، بين الماضي والحاضر، مع الطبيعة ، وبعد وفاته صدر له « الديوان الكبير لشاعر البراري» عن دار ذات السلاسل بالكويت ١٩٨٤ وقد جمعته ابنة الشاعر توبة السيد شحاتة وأعده للنشر وصدره الدكتور إسماعيل الصيفي ، كما قامت مؤسسة البابطين بالتعريف به وبإنتاجه الشعري في معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين الصادر عام ٢٠٠٨ وتوجت إصداراته بالديوان الأخير «تأملات مع الحياة» وقدم له الدكتور محمد مصطفى أبو شوارب . ينظر : معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين ١٦/ ٢٠٣

المبحث الأول

استلهام البيان القرآني

القرآن الكريم هو كتاب الله المعجز وآياته الخالدة التي تتجلى فيها مظاهر القدرة الإلهية، ودلائل الإعجاز الرباني، والقرآن حياة للحياة وغذاء للأرواح ونور للقلوب ، ومعين ينهل من ينابيعه الأدباء ويمتاح من بلاغته الشعراء ، (والقرآن أول مصدر من مصادر الأدب الإسلامي وأول كتاب دوّن في العربية بلغة تميزت بعذوبة اللفظ ورقة التركيب، ودقة الأداء وقوة المنطق وسحر البيان وإعجاز البلاغة وجلال الإعجاز الذي جاء به أسلوبه الفذّ السهل الممتنع الفريد في التصوير والتعبير فأثراها بالمعاني ووسع دائرتها بما آتاها من ألفاظ وأساليب لم يعرفها العرب ولم يألفوها قبل نزوله)[١]

وكتاب هذا وصفه جدير بأن يوضع نصب أعين البلغاء ، ويكون نبراسا للأدباء والشعراء ، وهذا ما سعى إليه شاعرنا ونجح فيه إلى حد كبير، ولا غرابة (فالقرآن الكريم يمثل الركيزة الأساسية لثقافة الشاعر ونظرائه من أبناء الريف المصري منذ التحاقهم بالكتاب أو المكتب)[٢]، ولا يخفى أثر ذلك على تشكيل الوجدان وصياغة النفس وتهذيب الروح منذ الطفولة الباكرة ، وسنرى أن انشغال الشاعر بالقرآن منذ الطفولة كان سببا في اعتماده عليه أكثر من الحديث الشريف فضلا عن شيوعه بين الناس وسهولة حفظه .

ويحسن بنا أن نتعرف على آليات التأثر بالبيان القرآني كما تناولها النقاد ووضع ضوابطها وأسسها رواد الأدب الإسلامي ، يقول الدكتور صابر عبد الدايم:

---

(١) الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي عبد الهادي الفكيكي دار النمير سوريا ط أولى ١٩٩٦/ ٢٢

(٢) تأملات مع الحياة مؤسسة البابطين الكويت ٢٠١٣/ ٢٤ بتصرف

(فالتأثر بالبيان القرآني في الشعر المعاصر تتعدد محاوره وظواهره ، فقد يتأثر الشاعر بالبيان القرآني صياغة وفكرا وشعورا ، فلبنات شعره تستمد جرسها العذب من المعجم القرآني ألفاظا وتراكيب ورؤيه شعرية تنطلق من الآفاق القرآنية وتنبع من مقومات التصور الإسلامي للحياة عقيدة وعبادة وعملا ، وقد يتأثر الشاعر بالمعجم القرآني أي بألفاظه وتراكيبه ولا تشحن روحه بطاقة الإيمان الدافعة، وحينئذ يصبح التأثر شكليا أدائيا يظل بمنأى عن نسيج الرؤية الإسلامية الطامحة إلى فعلية الوجود الحضاري المسلم، وأحيانا يكون التأثر سلبيا مضادًا وذلك حين يسيء الشاعر استخدام الألفاظ والتراكيب والمعاني القرآنية كأن يضعها في غير موضعها اللائق ، أو أن يسوقها في معرض السخرية والتهكم.... ومثل هذه المحاولات تبوء بالفشل الذريع ولا تحظى إلا بالرفض الكامل شكلا ومضمونا)[١]

والمتأمل في ديوان شاعر البراري يظفر بعدد هائل من نماذج التأثر الإيجابي بالقرآن الكريم ، والتمثل الواعي لألفاظه ومعانيه ، والاقتداء البارع بقيمه وأحكامه ، والإذعان التام والاستسلام المطلق لمنزله جل في علاه ، أضف إلى ذلك قدرة الشاعر على تحقيق الانسجام بين النص القرآني المقتبس والسياق العام للأبيات ، وهذا ميدان فسيح لتفاوت الشعراء يتطلب الوقوف على أسرار النص القرآني والإفادة مما يحمله من ظلال وإيحاءات ، وهذا ما تؤكده النماذج التالية سواء ما ورد في سياق الوصف أو التأمل أو الغزل .

ففي اطار الوصف ينظم الشاعر عددا من القصائد منها (الفرقدان) وفيها يعبر عن النشوة والاغتباط برفيقي الأزل وصنوي الخلود ويستحضر أحد المشاهد القرآنية ومظاهر الإعجاز في الكون فيقول :

متلازمان على الزمان وكذا يكون الصاحبان

---

(١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق ٦٨، ٦٩ باختصار

لا الـــــدهر أثّـــــر فيهمـــــا يومـــــا ولا مـــــلأ المكـــــان
أخـــــذا الأمـــــان ولم يكـــــن لســـــواهما أخـــــذ الأمـــــان
متشمـــــتان هنـــــاك فـــــي بـــــدر وشمـــــس يخسفـــــان
يريـــان مـــا تجـــري بـــه الـــ أقـــدار بعـــد ويسمعـــان
متهامســـان هنـــاك نحـــ ـــن الشـــاهدان العـــادلان
نهـــدان في صـــدر السمـــا ء فلـــيس عنهـــا ينأيـــان
إلا إذا انشقـــــت فكـــــا نـــــت وردة مثـــــل الـــــدهان[1]

وبرغم ما يذخر به المشهد من بدائع الصور وروائع التشبيهات تظل الصورة القرآنية في البيت الأخير حاضرة ومهيمنة على نظائرها ، سواء في ذلك النجمان اللذان هما أشبه بنهدين في صدر السماء ، وصورة الصديقين الوفيين لا يشوب ودهما كدر، وتشخيص النجمين في صورة الشامتين من الشمس والقمر حين يعرض لهما خسوف أو كسوف ، ولقد نجح الشاعر في تحقيق الانسجام بين النص المقتبس والسياق الشعري ، ذلك أن هذين النجمين لا يفترقان حتى تقوم الساعة وهو ما تعبر عنه الآية القرآنية أجمل تعبير وأوفاه ، ذلك أن من علامات الساعة انشقاق السماء وذوبانها وتلونها ، يقول ابن كثير : (كالدهان أي تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك وتتلون كما تتلون الأصباغ الت يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة العظيم)[2] ولا غرو فهذه الصورة البارعة التي تتجلى فيها السماء في صورة الوردة تعد من براهين الإعجاز القرآني التي تآزرت على إثباتها العلوم الحديثة ، واقتدر الباحثون على الوقوف على ما تحمله الآية القرآنية من دقائق وأسرار .

---

(١) الديوان الكبير ١٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ط : الأولى ١٤١٩ هـ ٧ /٤٦٠

وفي سياق المناجاة لأحد الطيور البائسة ينعي شاعر البراري على ذلك الطائر أنينه وبكاءه فيقول مقتبسا بعض العبارات القرآنية :

بين الزهور وتبكي أيها الباكي ... ماذا تركت لطير بين أشواك
يا مطلقا كخيالي ما تكون إذا ... ما بت في شرك من نوع أشراكي
أبكي وتبكي ولكن لست أنت أنا ... أنا المعنَّى وأنت المدّعي الحاكي
يا ابن الخميلة أغصان الخميلة لا ... تقسو على صادح أو صائح باك
أما أنا فغصوني فوق قسوتها ... تبيت تصغي إلى واشٍ وأفّاك
امدد جناحيك واضممني إليك تجد ... مشكوّة النار أصلت مهجة الشاكي[1]

وهذه المقطوعة تظهرنا على إحدى مظاهر الرقة وأمارات الشاعرية ، يدل على ذلك التشابه الواضح بين الشاعر البائس والطائر الحزين ولقد توج هذه المشاعر الرقيقة بتلك الرغبة الملحة وهذا والمطلب الحاني :

امدد جناحيك واضممني إليك تجد ... مشكوّة النار أصلت مهجة الشاكي

وهنا يستلهم قول الحق جل في علاه : (وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ)[2] وهو استلهام ينسجم مع مخاوف الشاعر وما يعانيه من قسوة الحياة وظلم الدهر قال المفسرون : (لما ألقى موسى عصاه فصارت جانّا رهب وفزع ، فأمره الله أن يضم إليه جناحيه ليذهب عنه الفزع ، قال مجاهد : كل من فزع فضم إليه جناحيه ذهب عنه الفزع ، وقرأ هذه الآية ، وجناح الإنسان عضده ، ويقال : اليد كلها جناح ، وقرئ من الرهب وهو بمعنى الرهب ، كالرشد والرشد ، وقال عطاء عن ابن عباس : يريد اضمم يدك إلى صدرك من الخوف ولا خوف عليك ،

(١) الديوان الكبير ٣٩٧.
(٢) سورة القصص الآية ٣٢

والمعنى أن الله تعالى أمره أن يضم يده إلى صدره فيذهب ما ناله من الخوف عند معاينة الحية) [١]

ويقول في (استقبال الربيع) متخذا من البيان القرآني متكأ لتصويره البارع وفنه المحبب وإن لم يتجاوز الاقتباس عددا من الألفاظ المفردة والكلمات المحددة :

وقال للشوك نفِّس عن أبي لهب ... وافى فكلّل كأس الزهر بالحبب
كيلا يقال لها حمّالة الحطب ... وافى فحمّل أغصان الرياض حُلىً
ما في خدود الغواني من دم كذب ... وافى فراحت ورود الروض تطعن فيه
والطير أصدق أنباء من الكتب ... وافى فلا صادح إلا روى نبأ
أن اسجدي لأمير العام واقتربي[٢] ... وافى فنادى انعطافُ الغصن عاطفتي

والشاعر يتجول في حدائق القرآن ليقتطف من أزاهيره اليانعة ما يلهمه بدائع الصور ورقائق المعاني ، ففي البيتين الأولين يستلهم صورة أبي لهب وزوجه وقد صاغها القرآن في عبارات موجزة بيد أنها تجسد صور العذاب والنكال الذي أعدّ لذينك الجاحدين ولنظائرهما من أساطين الكفر ورموز الضلال ، أضف إلى ذلك أن قدوم الربيع كان إيذانا بانقضاء هجير الصيف ولهيب الحرّ واكتساء الأغصان بالخضرة والورود التي فاقت حمرتها خدود الغواني نضرة وجمالا وقد ناسب ذلك استدعاء الشاعر تلك العبارة القرآنية ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾[٣] واستكمالا للنهل من هذا المعين القرآني العذب يسدل الستار على مشهد الخضوع أمام العظمة الإلهية بتوظيف الأمر القرآني ﴿اسْجُدْ

---

[١] الوسيط في تفسير القرآن المجيد ، أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي قدمه الدكتور عبدالحي الفرماوي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة : الأولى ١٩٩٤ ، ٣/ ٣٩٨

(٢) الديوان الكبير ٤١١.

(٣) سورة يوسف الآية ١٨.

وَاقْتَرِب﴾[١] للتعبير عن لون من القرب المحبب والتداني الذي تتوق إليه نفوس المحبين وأرواح المؤمنين .

وفي قصيدة (الشمس) يستلهم الشاعر عددا من المشاهد القرآنية والقصص النبوية متكئا على بعض المصاحبات اللفظية [٢] ومتخذا من الشمس شاهدا على التاريخ الإنساني من لدن آدم إلى بعثة النبي محمد ﷺ ولقد استهلها بقوله :

تفتر محمرّة من مهجة الغسق كأنها وردة في وجنة الافق

ومما قاله:

قد شاهدت أحمد المبعوث مرحمة يرعى القطيع ويطوي أوعر الطرق
وشاهدته وجبريل يلقنه (اقرأ) وما لاح في خديه من عرق
وشاهدته وبدر التم منشطرٌ أمامه تجتليه الناس بالحدق
وشاهدت أم عيسى وهي تحمله والقوم يرمونها بالسوء عن خرق
وشاهدته وقد أمسى يبشرهم بخاتم الرسل زاكى الخلق والخلق
وشاهدت أم موسى وهي تقذفه خوفا عليه وما خافت من الغرق
واستحسنت قولها حالا لنجلتها أخوك منطلق في اليم فانطلقي
وراقها حزمه يوم الفرار إلى ديار مدين من خوف ومن فرق
وشاهدته وقد ألقى العصا فغدت (أفعى) تشير إلى فرعون بالعلق(٣)

---

(١) سورة العلق الآية ١٩.

(٢) المصاحبات اللفظية نوع من النصوص المقتبسة في الشعر وتتكون من كلمتين أو أكثر وتكون من متممات الجمل كالكلمات المتعاطفة والصفة والموصوف والجار والمجرور، ينظر: أثر القرآن في شعر العصر المملوكي د. أنس الفقي دار بلال ٤٤

(٣) الديوان الكبير ٨٥ ، ٨٦

والشاعر يستجلي تلك المشاهد الخالدة في حياة الأنبياء ، فيصور أولى لحظات تنزل الوحي على قلب النبي محمدﷺ بالأمر الإلهي (اقرأ) كما كانت الشمس شاهدة على قالة السوء التي تقوَّلها المبطلون على مريم البتول ، وشاهدة كذلك على مظهر من مظاهر التسليم للقدرة الإلهية والعناية الربانية حيث تقذف الأم برضيعها في لجة البحر دون خوف أو وجل ، ثم يرافق الشاعر نبي الله موسى في قدومه إلى مدين ثم فرعون معتمدا في ذلك كله على آيات القرآن وبدائع القصص ، ولا يخفى ما تحمله الأبيات من دلائل التعظيم والإجلال للنص القرآني ، وليس أدل على ذلك من حرص الشاعر على الاستدلال به ــ وهو القمة العليا من اليقين والسطوع ــ على ما ساقه من مضامين ورؤي .

وفي قصيدة : (الغراب) يعبر الشاعر عن تعاطفه مع الطيور والحيوانات فيقول مخاطباً الغراب ومستلهما صنيعه الذي أشار إليه القرآن الكريم في سورة المائدة :

لم لا تشيب وأنت أول راء ... أولى الدماء على ثرى الغبراء
أخضبت نفسك بالسواد على أخ ... خضبته كف أخ له بدماء
أمعلم الإنسان دفن أخيه قد ... جازى جميلك بعد شرّ جزاء
جازى جميلك بالتطير ويحه ... أفلا يجمل نفسه بوفاء
ظن النعيق نذير بينٍ بيِّنٍ ... أرسلته بتفرق الخلطاء
جهل ابن آدم ما نعقت مفرقا ... بل مرسلا لأخيه لحن رثاء(١)

والأبيات تعد نموذجا للتناص مع آيات سورة المائدة (٢) التي صدَّر بها الشاعر قصيدته وهي تحكي قصة ابني آدم وامتنان الغراب عليها ، وها هو ذا

(١) الديوان الكبير ٣٩٦.

(٢) الآيات المشار إليها قول الله عز وجل : (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق ...) الآيات ٢٧، ٢٨ ،٢٩ ، ٣٠ ، ٣١ من سورة المائدة

ينطلق من تلك الموعظة الخالدة والمأساة المفجعة لإضفاء ألوان من التصوير البارع المستمد من خيال مفعم بنور القرآن وعظاته ، وليس أدل على ذلك من هذه الصورة اللونية التي يهيمن عليها السواد إيذانا بالحزن وتعبيرا عن فجيعة زلزلت الكيان الإنساني على مرّ العصور ،

ولا يقتصر استلهام البيان القرآني على الوصف وإنما يتعداه إلى الغزل ، ولا غرابة فهو غزل يسيل رقة وعذوبة ويفيض لوعة واشتياقا ، وأهم من ذلك عدم إخلال الشاعر بما يليق بمقام القرآن من التعظيم والإجلال ، ومما قاله :

أقسم الآن بالشفق ... وبليل وما وسق
وبنجم إذا هوى ... وببدر إذا اتّسق
وبدمع السحاب إن ... سال في الروض واندفق
وبطرف السّها الذي ... علّم العاشق الأرق
أن ظبيا مهفهفا ... قنص الليث وانطلق(١)

ما أجملها من صورة وما أصدقها من عاطفة وما أبدعه من توظيف لمشهد الليل وما يتراءى فيه من النجوم وما يتألق في أجوائه من بدور وما يسيل فيه من أمواه وما يحتشد فيه من مخلوقات تتآزر لتكون قسما على حالة فريدة من العشق والغرام ، فقد سلب ظبي رقيق قلب محب جسور وتركه نهبا لمشاعر الشوق والحنين ، والقسم بهذه الأجرام وتلك المخلوقات مبثوث في كثير من الآيات القرآنية الكريمة كقول الحق سبحانه في سورة الانشقاق : (فلا أقسم بالشفق والليل وما وسق والقمر إذا اتسق ...) وقوله جل في علاه في مطلع سورة النجم : (والنجم إذا هوى ...) .

(١) الديوان الكبير ١٣٩.

ويقول مستلهما قصة نبي الله يونس عليه السلام :

لـــك أن تصـــدّ وتهجـــرا وعلـــــيّ أن أتصـــــبّرا
يهنيـــك وجهـــك ناضـــر أمـــا أنـــا فكمـــا تـــرى
ســـقمى بـــدا فكـــأنني (ذو النـــون) ينبـــذ بـــالعرا
لـــي مـــدمع مـــا غـــردت قمريـــــــة إلا جـــــرى
وحشاشـــة إن لاح لـــي نجـــم تزيـــد تســـعّرا(١)

فالشاعر في إطار الغزل الرقيق والتعبير عن مكابدة الشوق ومعاناة الجوى فضلا عما يكتنفه من الضعف والهزال يلتقط أحد المشاهد القرآنية البارعة لتتبدى للقارئ صورة نبي الله يونس عليه السلام لدى نجاته من بطن الحوت وقد مسه الألم وأصابه الضعف والسقم وهذا ما يتجلى في قول الحق سبحانه ﴿ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[٢](أي ضعيف البدن ، قال ابن مسعود رضي الله عنه : كهيئة الفرخ ليس عليه ريش ، وقال السدي : كهيئة صبي حين يولد) [٣]

ويتصل بهذا اللون الغزلي قول شاعرنا:

يـا مالك النـار نـار الحب حامية فـلا تعـذب بنـار الحـب عشـاقاً
يكفيـك أنهمـوا ذابـوا وأنهمـوا ذاقوا حميماً على الدنيا وغساقاً(٤)

أضف إلى ما سبق أن الأثر الإسلامي في الشعر الغزلـي لا يقتصـر علـى مجرد الاقتباس للألفاظ والعبارات وإنما يتعداه إلى استحضـار التعـاليم الدينيـة

(١) الديوان الكبير ٩٨.
(٢) سورة الصافات الآية ١٤٥.
(٣) مختصر تفسير ابن كثير ت محمد علي الصابوني م العصرية ٢٠١٤، ١٥٥/٣
(٤) الديوان الكبير ٣٢٩.

والآداب الإسلامية في التناول الشعري للمرأة فتجد الشاعر يتخير في غزله ــ وهو قليل ــ مسلكا عفيفا يتسم بالوقار والعفة .

ومن الموضوعات الشعرية التي يتجلى فيها استلهام البيان القرآني في أبهى صوره التأمل في الكون والمناجاة للخالق والتعبد لله عز وجل بتدبر آياته واستشراف مظاهر قدرته ، ففي قصيدة (إلى الله) يأتي استلهام البيان القرآني منسجما مع الضراعة الخالصة والابتهال الخاشع حيث يقول:

يا واهبا لي وقد ولّى الصبا ولدا	صنه وهيئ له من أمره رشدا
حلّيته اليوم في ثوب البراءة فضـ	ـفاضا عليه فلا تنزعه عنه غدا
اجعل له هالة من نور دينك يا	ربي ، وألبسه من نسج الهدى لبدا
واجعله فجرا لآمال تفجرها	على يديه ولا تفجع به أحدا
لي من بناتي بانات ولا عجب	إذا ترقبت منه طائرا غردا(١)

والتناص مع الآية الكريمة ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾[٢] بمثابة الإجمال يعقبه التفصيل، والمحور الأساس لدعوات الآباء للأبناء سواء في ذلك ما يرجونه لهم من الهداية والحفظ وتحقيق الآمال ، والمعنى : (رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً توجب لنا المغفرة والرزق والأمن من العدو ، وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا من الأمر الذي نحن عليه من مفارقة الكفار رَشَداً نصير بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا كله رشداً) [٣] أضف إلى تلك الآية المحورية هذه العبارات القرآنية المبثوثة في

(١) تأملات مع الحياة ٢٣١.

(٢) سورة الكهف الآية: ١٠.

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين الشيرازي البيضاوي تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي دار إحياء التراث بيروت ط الأولى ١٤١٨ ، ٣ / ٢٧٤

ثنايا الأبيات ككلمة لبدا ، وقوله : ولا تفجع به أحدا ، ولا يخفى التأثر بالصياغة القرآنية والبيان الخالد .

وفي قصيدته التي اختار لها عنوان (أرأيت يا موسى) يتجلى التداخل النصي مع بعض آيات القرآن الكريم حيث يقول الله سبحانه : ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۞ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾[1] ويقول الشاعر:

أرأيت لما جئته ... وأخذت تذكر ما سلف
كان الجزاء على السقا ... ية قوله لك (لا تخف)
أرأيت لما قالت اسْ ... تأجره وانكشف الهدف
كنت الأجير له كما ... طلبت وكان له الشرف
أرأيت لما لاحت النـ ... ـار المنّعة الكنف
لاحت على قدر هنا ... لك لا على محض الصدف
فتركت أهلك ماكثيـ ... ـن وقلت يذهب من عرف
وذهبت تطلب الاقتطا ... ف فكنت أنت المقتطف(٢)

والقصيدة أشبه بحوار بين الشاعر ونبي الله موسى عليه السلام تتلوها أخري يستدعي فيها قصة نبي الله يوسف عليه السلام ، ولقد أحسن الشاعر الاتكاء على القصة القرآنية مقتبسا العبارات التي تومىء إلى المضمون القصصي بأوجز عبارة وهو مسلك يظهرنا على الحضور الدائم للشخصيات المقدسة في وعي الشاعر وقدرته على محاورتها دون أن يتجاوز حد التعظيم والإجلال باستثناء التلميح المسيء في البيت الثالث .

---

(١) سورة القصص الآيتان : ٢٥، ٢٦
(٢) تأملات مع الحياة ٣٥٩.

وفي قصيدة (الله اكبر) يتتبع الشاعر الإنسان في عبوره درب الحياة وما يقطعه من آماد في هذه الدنيا بأسلوب يتسم بالسرد المتتابع لحياة الأجيال المتعاقبة ، وأهم من ذلك حرص الشاعر علي تتويج أواخر الأبيات بعبارة قرآنية على غرار قوله :

النشـــــأة الأولى رشـــــا ... د أو ضـــــلال للعبيـــــد
والنشـــأة الاخـــرى ريـــا ... ض أو مقـــامع مـــن حديـــد
هـــو بـــادئ الإنســـان جـــلّ ... جلالـــه وهـــو المعيـــد
يطـــوي وينشـــر وهـــو في الـــ ... ـــحالين يفعـــل مـــا يريـــد
نـــار وفـــردوس وإنـــ ... ـــسان شـــقي أو ســـعيد(١)

وليس أظهر في استلهام الشاعر للبيان القرآني من قصيدته التي يصف بها القرآن الكريم ومنها قوله:

نبـع مـن النـور المصـفّى ... متـدفق واف مـوفّى
مترفـق يسـعى إلى الـ ... ألبـاب مجلـوّ مخفّـى
يضـفي هـداه علـى الأُلى ... يقفـون بـين يديـه صـفّا(٢)

ولقد أحسن الشاعر اختيار الآية القرآنية التي يقدم بها أبياته مما يدل على الانسجام بين سياق الأبيات ومعنى الآية وفي هذا التقديم دلالة واضحة على الوعي بما يحمله القرآن من أدلة الهداية ودواعي الرشاد للنفس البشرية في كل زمان ومكان ، يقول الحق جل في علاه ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[٣] (قال مالك بن دينار: يعني القرآن، وكان يقول: يا أصحاب القرآن ماذا

(١) الديوان الكبير ٣٦١.
(٢) السابق ٤٥٧.
(٣) سورة الشورى الآية: ٥٢.

زرع القرآن في قلوبكم فإنّ القرآن ربيع القلوب كما الغيث ربيع الأرض ، ما كُنْتَ تَدْرِي قبل الوحي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ يعني شرائع الإيمان ومعالمه ، وقال أبو العالية : يعني الدعوة إلى الإيمان ، دليله قوله تعالى: وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ ، وَلكِنْ جَعَلْناهُ نُوراً وحّد الكتابة وهما اثنان : الإيمان والقرآن ، وقال ابن عباس : (وَلكِنْ جَعَلْناهُ) يعني الإيمان، وقال السدّي: يعني القرآن) [١]

وفي إطار التعزية للأب والرثاء لحاله وقد رزئ بالسجن برغم براءته يقول الشاعر مستلهما قصة يوسف عليه السلام:

صبراً على البلوى وإن ... هاجتك ذكرى لا تهج
لك أسوة في يوسف ... حج السجون ولا حرج
وأراد ربك ما أرا ... د فجاء من ضيق فرج(٢)

لعمري لقد أضحي نبي الله يوسف قدوة لكل صابر ومثلا لكل محتسب ونبراسا لكل مظلوم ينشد العدالة ويرقب الفرج ، ولقد أحسن شاعرنا استلهام ذلك المشهد القرآني وتلك الأخلاق النبوية للتعزي عن مأساة أبيه الذي ألقت به الأيدي الآثمة والأحكام الجائرة في غياهب السجون دون ذنب أو جريرة .

وفي ختام هذه الجولة مع القرآن الكريم تستوقفنا مقطوعة بعنوان (القيام على الأضرحة) وفيها يشع الاقتباس القرآني ناشرا ظلاله النورانية على سائر الأبيات وإن اختلف السياق حيث يقول:

يا من تقوم على الضريح مناديا ... هذا عمى فمتى تعود بصيرا

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن ، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي تحقيق : الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي دار إحياء التراث العربي، بيروت ط الأولى ٢٠٠٢ ، ٨ /٣٢٦

(٢) الديوان الكبير، ١٥٤.

من ذا الذي ناديت ؟ ما تأثيره ؟ أتراه يملك للأمور مصيراً
تالله إنك لو نظرت على هدى لرأيت باع العالمين قصيرا
انفض يديك وناد ربك وحده "وكفى بربك هادياً ونصيراً (١)

والشاعر يصب جام غضبه على أولئك الجهلاء الذين يولون وجوههم شطر القبور والأضرحة طالبين الغوث والعون مخبرا إياهم بأن النصر والهداية والعون والمدد لا يملك مفاتيحها إلا الله ، وليس أنفع للمرء ولا أجدى في قضاء حوائجه من اللجوء إليه وحده والاستعانة به دون سواه ، أما النص المقتبس (وكفى بربك هاديا ونصيرا) [٢] فهو خطاب ومواساة للنبي ﷺ (وإيناس من الله تعالى لنبيه بأن غيره من الرسل كذلك امتحن بأعداء في زمنه ، فلا تحزن يا محمد، فتلك عادة الأقوام مع أنبيائهم ، فكما جعلنا لك أعداء من المشركين يتقولون عليك الأباطيل ، ويهجرون القرآن، جعلنا لكل نبي من الأنبياء المتقدمين أعداء من المشركين الظالمين، يدعون الناس إلى ضلالهم وكفرهم ، لكن النصر والغلبة في النهاية للرسول النبي صلّى الله عليه وسلّم ، لذا وعد الله تعالى نبيه بقوله : وَكَفى بِرَبِّكَ هادِياً وَنَصِيراً أي اكتف بربك ، فإنه هو الهادي إلى الحق ، وهو الناصر على أعدائك في الدنيا والآخرة) [٣]

والحق أن الشاعر في استلهامه البيان القرآني بوجه عام وانطلاقه مما تحمله آيات الذكر الحكيم من عظات وعبر إنما يلفتنا إلى حقيقة مهمة وهي التنبيه على عظمة القرآن الكريم وحتمية أن يوضع نصب أعين البشر في كل زمان ومكان ليسيروا على نهجه ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه فتلك أعظم أسباب الرشاد وأولى ضمانات السعادة في الدنيا والآخرة .

---

(١) تأملات مع الحياة ٤٨٥
(٢) سورة الفرقان الآية ٣١
(٣) التفسير الوسيط د وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق الطبعة : الأولى ٢/ ١٧٩٦

هذه النماذج وغيرها من صور الاستلهام الإيجابي للبيان القرآني لا تنفي وقوع الشاعر في دائرة الاحتذاء الشكلي والتقليد اللفظي للعبارة القرآنية دون رافد من حس قوي أو استمداد من عاطفة يقظة ، وإمعانا في الترسم الشكلي والاحتذاء التقليدي للعبارة القرآنية يخصص شاعر البراري أجزاء من ديوانه لتضم عددا متتاليا من المقطوعات التي يذيلها بلفظة أو عبارة قرآنية ، ومن هذا اللون قوله تحت عنوان (ولو) :

ولو قلبي شكا وجدي ولم يحمل أعاصيره
لما أرضاه لي قلبا (ولو ألقى معاذيره)(١)

وقوله:

قلت للدهر المولِّي لا تجرب فيّ عدلك (قال قد
أنا كسر فاختصرني أوتيت سؤلك)(٢)

وقوله أيضا :

لما نسوني ومرت بي سفينتهم تجري بهم وحدهم في هادئ باسم
ناديت يا جبل السلوان تعصمني من ماء طوفان دمعي (قال لا عاصم)(٣)

وقوله:

قلت للقلب اعفني من غرام ومن شغف
(فعصا) الحب (حية) (قال خذها ولا تخف)(٤)

---

(١) الديوان الكبير ١٤٠.
(٢) الديوان الكبير ١٤٠
(٣) السابق والصفحة
(٤) السابق ١٤١

وقوله:

سـألته ذات يـوم سـؤال صـبّ مخـاطر
أصـائم يـا حبـيبي عـن جـبر كسـر الخـواطر
فكـان رد سـؤالي (الحمـد لله فـاطر)(١)

لكن هذه الهنات لا تخلو من إشارات إيجابية حيث تدل على انشغال بالقرآن وحرص على تزيين القصائد والأبيات بحلية منه تضفي عليه جمال الزهر وبهاء الورود وإن فاتها منه العطر وغادرته الرائحة.

(١) السابق ١٤٢

المبحث الثاني

استدعاء الشخصية النبوية

تأتي الشخصية المحمدية في طليعة الشخصيات التي حرص الشعراء منذ القدم على استدعائها واستلهام بيانها واستجلاء ملامحها وتعظيم دورها والنظر إليها بعين التعظيم والإكبار، ولا غرابة (فإن النبي محمدا ﷺ يمثل الشخصية الإسلامية في صورتها المثلى فهو أفصح العرب لسانا وأصفاهم جنانا وهو السراج المنير والبشير النذير وما زالت شخصيته تمد البصائر المؤمنة بأروع أسرار الكلم وأصدق ابيات القصيد)[١].

ولاستدعاء الشخصية النبوية في الشعر بعامة آليات عديدة وطرائق شتى ورؤى متنوعة ، ومن أظهرها : الرؤية الشمولية للشخصية المحمدية (وتنطلق من المنظور العقدي ، فالشاعر في اتكائه على هذا البعد الفني يموج وجدانه بوهج الإيمان والشوق إلى انتصار الوجود الإسلامي وعودته إلى تسنم ذروة المجد وقمة الحضارة)[٢] وفي هذا الإطار يرتكز الشاعر على الملامح العامة للشخصية المحمدية والمحور الرئيسي للرسالة الخاتمة بعيدا عن الملامح الخاصة للشخصية النبوية ، يقول الدكتور حلمي قاعود:

(إن استدعاء الشخصية المحمدية والاقتراب منها مرتبط أساسا بالدفاع عن الدين وجلاء حقائقه وعرض مزاياه وهذا لا يتحقق للشاعر إلا من خلال الملامح العامة للشخصية المحمدية بالدرجة الأولى التي تتناغم مع التجربة الشعرية

(١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق د. صابر عبد الدايم ١٠٠ بتصرف
(٢) السابق ِ ٩٨ باختصار.

وتنهض بها إلى حيز الوجود الأدبي ، وتبقى الملامح الخاصة وراء الصورة ليستغلها الشاعر غالبا في بث همومه الذاتية)[١].

وإلى جانب الرؤية الشمولية تتجلى الرؤية الذاتية حيث يعمد الشاعر إلى استدعاء ملامح الشخصية المحمدية (كي يطرح همومه الحياتية ويكشف عن قلقه الذاتي ، ويبوح بما تنطوي عليه نفسه من مكابدات وما تموج به من أشواق وطموحات وانفعالات)[٢].

وتتنوع رؤية شاعر البراري للشخصية المحمدية بين شمولية وذاتية مع غلبة واضحة للرؤية الذاتية ، وقد ارتضى هذا المسلك الفني إطارا يطرح من خلاله همومه النفسية ومتنفسا لروحه التي كبلتها الهموم وتكاثرت عليها النوائب والرزايا ،

وبيان ذلك أن شاعرنا تفرد بين شعراء المديح النبوي قديما وحديثا بأن نظم ثماني وعشرين قصيدة متبعا فيها ترتيب الحروف الهجائية واختار لها جميعا عنوانا موحدا : (إلى رسول الله) وهذا يدل على ميله إلى التجديد وعزوفه عن السير على النمط التقليدي الذي سار عليه الشعراء منذ القدم ، ذلك أن الأعم الأغلب من قصائد المديح النبوي تسير على النهج الذي رسمه كعب بن زهير في لاميته والبوصيري في بردته من حيث ابتداء القصائد بالغزل والتمسك بروي اللام عند كعب حيث يقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول[٣].

وروي الميم عند البوصيري حيث يقول :

---

(١) محمد ﷺ في الشعر الحديث، دار الوفاء، ط الأولي ١٩٨٧، ١١٥.

(٢) الأدب الإسلامي د/ صابر عبد الدايم ١٢٤ باختصار.

(٣) جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ت علي محمد البجادي نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ٦٢٣/١

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعا جرى من مقلة بدم[١].

أما شاعرنا فقد عدل عن المقدمات الغزلية إلى المدح المباشر والاستدعاء للشخصية النبوية ، كما لم يتعمد الالتزام بقافية اللام التي مهد بها كعب طريق المدح أو الميم التي اختارها البوصيري رويّا لبردته وإنما ينهج نهجا فريدا تخضع فيه كل الحروف الهجائية من الألف إلى الياء لتكون رويا ، ولعل السر في ذلك يكمن في شدة التعلق بالنبي الخاتم والرغبة في الإفضاء إليه بكل ما يعتمل في نفسه المعذبة من مشاعر وما يختلج فيها من أحاسيس وكأني به يقول : إذا كان الشعراء يهربون إلى الحب ويتعزون بالطبيعة فإنني أفرّ إلى الساحة النبوية وأتخذ من استدعاء تلك الشخصية المحببة مرفأ وملاذا.

وهذا المسلك يعيد إلى الأذهان صنيع المتصوفة الذين يعمدون إلى التوسل بالنبي والاستنجاد به (فقد رأى شعراء الصوفية أن منزلة الرسول محمد عند الله تؤهله للتدخل من أجلهم وتحقيق الغايات التي ينشدونها ومساعدتهم على تجاوز المحن والصعاب التي يمرون بها فأكثروا من الشكوى إليه والتوسل به صلى الله عليه وسلم في ثنايا قصائدهم)[٢].

لكن القراءة المتأنية لديواني شاعرنا تنأى به عن مسالك المتصوفة بما يكتنفها من مزالق وانحرافات ، وحسبنا في الدلالة على ذلك ثورته العارمة على أدعياء التصوف وأهل البدع والخرافات ، والتعريض بشيوخ الطرق ، والرفض القاطع لحلقات الذكر والتبرك بالأضرحة ، وأهم من ذلك حرصه الدائم على استلهام المصادر التشريعية الناصعة وفي طليعتها القرآن الكريم ، وحرصه على إعلاء القيم الدينية والفرائض الإسلامية بوضوح واعتدال ، ولعل مما يؤكد ذلك أنه لم يحرص على تطويع قصائده لتناسب الإنشاد في حلقات الذكر فلم يتمسك

(١) ديوان البوصيري ت محمد سيد كيلاني م مصطفى الحلبي ط الثانية ١٩٧٣/ ٥٥
(٢) محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث ١٤٩.

بأوزان محددة أو قوافي بعينها وإنما نظم في كثير من البحور وأخضع سائر الحروف الهجائية لتكون رويا لقصائده الثماني والعشرين ،

وأرى أن الشاعر في استدعائه للشخصية النبوية إنما يتخذ من هذا المسلك الفني بديلا إسلاميا ومعادلا موضوعيا للحلول في الطبيعة أو التعزي بالحب الذي يتضح في شعر الرومانسيين ، ومن ثم يمكن القول بأن استدعاء شاعر البراري للشخصية النبوية يمثل أحد الحلول الإسلامية لأزمة الشاعر المعاصر ، وهذا المسلك برغم ما يكتنفه من مزالق أيضا ــ فالأولى بالمسلم أن يتوجه بالشكوى إلى الله وحده ــ يدل على الحضور الدائم للشخصية المحمدية في وعي الشاعر وشدة التعلق بهديه ﷺ وتحيّن الفرص للتعبير عما يكنه الشاعر لهذه الشخصية من التعظيم والإكبار ، والرغبة في إرساء إحدى الدعائم القوية للإبداع الشعري عمادها التعلق بالشخصيات الدينية واتخاذها محورا للتجارب الشعرية لتكون بديلا إسلاميا عن الدوران في فلك الأوربيين الذين طغت أشعارهم على الساحة الأدبية وهي أشعار في معظمها تعكس العقم الروحي والخواء النفسي والقلق والحيرة بإزاء القضايا التي تتعلق بالإنسان والكون والحياة.

ولقد تنوعت طرائق الاستدعاء للشخصية المحمدية في شعر محمد السيد شحاتة بتنوع البواعث الداعية إليها ، ومن ثم يمكن تناولها على النحو التالي:

أولا : المديح النبوي بين التقليد والتجديد:

المدائح النبوية لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع لأنها لا تصدر إلا عن قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص ويراد بها التقرب إلى الله بنشر محاسن الدين والثناء على شمائل الرسول)[1] ومن بدائه الأمور أن نظفر بكثير من قصائد المديح النبوي في ديوان شاعر البراري (حيث يعدد

(١) المدائح النبوي في الأدب العربي زكي مبارك ه ع قصور الثقافة ٢٠٠٣ /١٥

الشاعر بعض الصفات الخلقية والخُلقية ويظهر الشوق إلى الزيارة النبوية مشيرا إلى الأماكن المقدسة التي ترتبط بحياة الرسولﷺ مع ذكر معجزاته المادية والمعنوية والإشادة بغزواته وصفاته المثلى ، ويظهر الشاعر في هذا النوع من الشعر الديني تقصيره في أداء واجباته الدينية ويذكر عيوبه وزلاته المشينة وكثرة ذنوبه في الدنيا مناجيا الله بصدق وخوف مستعطفا إياه طالبا منه التوبة والمغفرة وينتقل بعد ذلك إلى الرسول طامعا في وساطته وشفاعته يوم القيامة)[١].

ولقد أطال شاعر البراري الوقوف عند الشخصية المحمدية مادحا تارة ومستعطفا تارة وشاكيا ومتبرما تارات ، ولقد تداخلت قصائده في هذا الباب تداخلا شديدا يصعب معه الفصل التام والتحديد الدقيق ، وحسبي أن أشير هنا إلى عدد من النماذج التي يغلب عليها طابع المديح النبوي ومنها قوله في قصيدته الفائية :

تركت قومي على الأصنام عكّافا ... وجئت أغشى جنان العطف ألفافا
أفردت بالمدح طه وحده وكفى ... فعنده يجد المظلوم إنصافا
ما ضرّ من ملئت من جوهر يده ... أن ليس يحتاج في الأيام أصدافا
أأنثني عنه إني لست منثنيا ... عنه وسيان عادى الدهر أو صافىَ
عار على مستظل بالكروم إذا ... تفيأ اليوم بعد الكرم صفصافا
يا أكرم الرسل يا أزكى الورى شيما ... يا خير من هزّ للمعروف أعطافا
أجريت مركب آمالي على قدر ... وقد جعلت رجائي فيك مجدافا(٢)

والشاعر في قصيدته يمتدح الجانب الإنساني في حياة النبي ويثني عليه بما هو أهله من روائع الصفات ومحاسن الأخلاق فتراه يضرب صفحا عن سائر البشر ويتجه بالكلية نحو الساحة المحمدية يتفيأ ظلالها ويستريح في دوحتها من

(١) شعر المديح النبوي في الادب العربي مقال بقلم جميل حمداوي مدونة ديوان العرب الدراسات المحكمة منشور بتاريخ ٢٤يناير ٢٠١٨م
(٢) الديوان الكبير ٢٢٩.

ظلم البشر وسطوة الهموم وقسوة الحياة ، وقد جلى تلك المعاني السامقة بتصوير آماله في صورة مركب يمخر العباب واتخذ رجاءه مجدافا وحق لهذا الراجي أن يؤمل ولذاك الخائف الوجل أن يحظى بالأمان.

ومن رقيق مدائحه النبوية قوله:

ما أنت في الكون إلا رحمة ملأتْ ... مسالك الأرض من بعد السماوات
أنت الذي لست ترضى لي على زللي ... أن يكشف الله يوم العرض سوءاتي
لك القيادة في الدنيا فإن فنيت ... فأنت في الحشر مقبول الشفاعات(١)

والشاعر في أبياته يتكئ على التناص القرآني حيث يقول الله سبحانه : (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) (٢) ليقينه بأنه مهما أوتي من براعة التصوير فلن يطاول هذا الوصف القرآني المعجز، ومهما بلغ تعلقه بالشخصية المحمدية فلن يبلغ حب الخالق جل في علاه لنبيه ومصطفاه .

ومن أدلة تعلقه بالشخصية المحمدية قوله:

محمد يا أرق الخلق عاطفة ... يا صفوة الله من آت ومن ماض
قد استخفت بي الآلام منقضة ... ظهري الضعيف المعنّى كل إنقاض
وأحجم الخير عن أفقي بلا سبب ... وأومض البؤس فيه شرّ إيماض
ولم يفت عثار الحظ في عضدي ... لأنك اليوم مرجّو لإنهاضي(٣)

والشاعر في مديحه يستلهم بعض ما أثنى به الخالق على نبيه وأفضل ما امتن به على رسوله ، وهي الآيات الخالدات (ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك

(١) الديوان الكبير ٢٠٢
(٢) سورة الأنبياء الآية ١٠٧
(٣) الديوان الكبير ٢٢١

وزرك الذي أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك)[١] ويستجدي العطف النبوي طالبا العون والهداية بعد أن داهمته الخطوب وتكاثرت عليه النوائب والرزايا حتى أوهنت جسده وأنهكت روحه ، وهنا تتراءى للمسلم بواعث الإيمان ودواعي اليقين ، وتفترق السبل بين المسالك الرومانسية القاتمة والدروب الإيمانية المضيئة .

ولا يأل الشاعر جهداً في تزيين مدائحه بشتى المحسنات وهو مسلك يلبي حاجة فنية لدى محبي هذا اللون الشعري ، ولنستمع إليه حيث يقول في جيميته :

بين الرجاء وبين الخوف منهاجي ... فانظر بعطف لهذا الخائف الراجي
مالي إليك شفيع غير قافية ... قسمتها بين إسراء ومعراج
فإن تقبلتها فالفوز لي أبداً ... وإن أبيت فيا ذلي وإحراجي
يا أكرم الرسل صرف الدهر أمطرني ... من معصرات الرزايا كل ثجّاج
ومن خلافك يحمي فلك عاطفتي ... من بغي عاصفة أو بغي أمواج(٢)

والأبيات تظهرنا على النهج الوسطي الذي يصدر عنه الشاعر في علاقته بربه وهو النهج الذي ارتضاه الله للمؤمنين من عباده فلا غلو ولا تفريط ، وهذا ما عبر عنه الطباق بين (الخوف والرجاء) و(الفوز والذل) أصدق تعبير وأجمله وأوفاه ، وكذا اختياره للطباق بين (إسراء ومعراج) للتعبير عما يكتنف قصيدته من التردد بين الشكوى والتوسل واليأس والرجاء ، أضف إلى الطباق تلك الصورة التي تسيطر عليها الأمواه وتحتل منها مساحات شاسعة سواء في ذلك ما تفد به السحب وما يحيط بمركب الشاعر من أمواج عاتية لكنها سرعان ما تتلاشى إيذانا بتلاشي الهموم وزوال الهموم

---

(١) سورة الشرح الآيات ١ــــــــ٤
(٢) الديوان الكبير ٢٠٥.

ويقول في قصيدته الدالية مؤكدا حرصه على التحسين والتزيين:

يـا صـاقل الكـون يـا مرويـه مـن ظمـأ ... مـاذا تـرى في الفـؤاد الصـادئ الصـادي
أيحـرق الهـمّ مـني كـل عاطفـة ... وفيـك وحـدك إنشـائي وإنشـادي
أتيـت أحـدو إليـك الفـذّ مـن أملـي ... فـانظر بعطـف إلى المحـدوّ والحـادي
أولى الطيـور بعطـف الـروض أجمعـه ... الصـارخ المشـتكى والصـادح الشـادي
يـا أكـرم الرسـل أدركـني ففـي كبـدي ... جرحـان مـرّان ذا خـاف وذا بـاد(١)

والقصيدة تعبر عن المنزلة الأسمى للرسولﷺ والدور المنوط به في تعبيد الخلق للخالق وهدايتهم بعد الضلال ، ولقد ناسب ذلك استعانة الشاعر بالجناس في (الصاديء والصادي) (إنشائي وإنشادي) ، (الصارخ المشتكى والصائح الشادي) الذي أضفى على المعنى أبعادا جمالية فضلاً عن الوفاء بما يعتمل في النفس الشاعرة والروح الظامئة والقلوب العطشى.

وما أجمل هذا الخطاب الودود الذي يتوجه به الشاعر إلى الساحة النبوية ناشدا الظل من هجير الحياة :

غليلـي يـا نـبي متـى يبـلّ ... وتعقيـد الحيـاة متـى يحـل
أنـا لـي في المحـاق هـلال خـير ... رأى حظـي فأقسـم لا يهـل
ولـي في كـل شـهر بـدر تم ... يـروعني متـى مـا يسـتهل
وبـي وجـد شـديد البطش نـام ... ولـي عـزم ضـعيف مضـمحل
فـؤادي احتلـه همّـي ولكـن ... متـى تعطـف عليـه يسـتقل
أيلجـئني اضـطرابي واضـطراري ... إلى بعـض الأنـام وأنـت كـل
ويقـتلني صـداي وأنـت نهـر ... ويفتـك بـي الحـرور وأنـت ظـل(٢)

(١) السابق، ٢٠٩.
(٢) الديوان الكبير، ٢٣٤.

والشاعر يتكئ على المحسنات البديعية لاسيما الطباق (غليل ــ يبل) و(تعقيد ــ يحل) الذي يطوي مراحل عصيبة في حياة الشاعر ويوحي بما عاناه في دروبها من مشقات ، ولقد صور البشر جميعهم بأنهم (بعض) والنبي (كلّ) وهذا دليل على أن منزلة الرسول في قلب الشاعر لا تعدلها منازل البشر وأقدار المخلوقين ، وما أجمل الجمع بين (الصدى والنهر) و(الحرور والظل) لبيان ضآلة الحياة بلا إيمان وتراجع قيمتها دون هداية، وعلى أثر الطباق تأتي المقابلة التي تستحوذ على بيت بأكمله وتسهم في تصوير حال الشاعر تجاه الأحداث التي زلزلت كيانه

وبي وجد شديد البطش نام ولي عزم ضعيف مضمحل

ولشاعر البراري عدد من قصائد المديح النبوي التي ينحو فيها المنحى التقليدي الذي سارت عليه طوائف الشعراء من لدن كعب بن زهير والبوصيري إلى البارودي وشوقي ، ومن ذلك قصيدته التي اختار لها عنوان (الخريدة) واستهلها بقوله :

يا أكرم الثقلين يامن لا يزل إحسانه يحتاجه الثقلان

أهدي إليك خريدة قد زفّها فكري وصاغ حليّها وجداني

لو أدركت حسّان يوما لاغتدت معشوقة إذ ذاك من حسان

ما مهرها إلا رضاك وإنه مهر أتيه به على أقراني(١)

والمتأمل في عنوان القصيدة وبنائها الفني يلمح انتماءها للنمط التقليدي ، فلقد استهلها بهذا الخطاب الودود والتوسل الرقيق إلى النبي ﷺ ناشدا الرضا والقبول ، وهذا اللون من الخطاب يعد مقابلا لاستهلال المدائح النبوية بالغزل (باعتبار أن كلا من التوسل والغزل العذري يعبر عن حالة من الشوق إلى المحبوب

(١) تأملات مع الحياة ٣٥٤

والسعي إلى نيل رضاه)[١] فالقصيدة تبدأ بالتوسل ثم الشكوى من الهموم الذاتية ثم التنصل من الذنوب والاعتراف بالتقصير ثم الختام بالتوسل والرجاء والصلاة على النبيﷺ وكلها سمات تقليدية ودروب سلكها الشعراء منذ الأعصر القديمة .

وفي (ذكرى ميلاد الرسول) يحتفي شاعر البراري مترسما خطى الشعراء كما يبدو متأثرا بما تفرضه تلك المناسبة من حفاوة المنشدين بالعناصر الموسيقية ومما جاء فيها :

في الطور في التين في الزيتون في البلد ... تشم نفح عبير السيد السند
تشمّ بالأنف أو بالروح أو بهما ... معا وإن تستزد يا صاحبي تزد
ارجع إليه رجوع العارفين تنل ... ما شئت يا صاح من مدّ ومن مدد
ارجع إليه رجوع التائبين وقل ... يا ثاني اثنين توّاب فخذ بيدي(٢)
ارجع إليه رجوع العابدين وسر ... على شريعته تأمن عذاب غد

والشاعر يبتديء قصيدته بذكر المواضع والأماكن المقدسة التي ارتبط بها النبي ﷺ على غرار الشعراء السابقين (الذين لم يتركوا مكانا وطأته قدم الرسول إلا رأوا فيه الملامح المحمدية الخاصة وشهدوا من خلاله أمجاد الرسول وعظمته النبوية والأخلاقية)[٣] ولقد اكتفى شاعر البراري بالإشارة إلى المواضع التي وردت في سور : الطور والبلد والتين كالبيت المعمور والبلد الأمين مستلهما بعض الملامح النبوية والسمات المحمدية التي تجلت في تلك البقاع المقدسة ،

(١) محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث د. حلمي القاعود ١٧٥
(٢) الديوان الكبير ٥٢٦
(٣) محمد صلى الله عليه وسلم في الشعر الحديث د. حلمي القاعود ١٧٥

كما اختار الشاعر لقصيدته بحر البسيط وهو من البحور التي اعتمد عليها شعراء المديح النبوي كالرجز والطويل والكامل (ورأوا فيها مجالا لبسط مشاعرهم وبسط أحاسيسهم تجاه النبي الكريم ، ففي هذه البحور ــ وبخاصة عند استخدامها تامة ــ ما يتيح للشاعر فرصة جيدة ليعرض الملامح المحمدية ويتحدث عنها بإفاضة تتناسب مع الفيض الزاخر من مشاعر المحبة وأشواق النجاة المعقودة على شخصية النبيﷺ) [١] ولعل هذا يفسر لنا الطول النسبي لهذا اللون من القصائد عند شاعر البراري لا سيما إذا قورنت بنظائرها من القصائد الثماني والعشرين .

أضف إلى ما سبق من المظاهر التقليدية والاستكثار من العناصر الموسيقية اختيار الشاعر قافية الدال (وللقافية بعامة سلطان يفوق ما لنظائرها في اللغات الأخرى ، وهي في شعر المديح النبوي تلعب هذا الدور بحيث تنسجم غالبا مع الوزن في تحقيق الجلال الموسيقي) [٢] ولقد فطن شاعرنا إلى ذلك فاختار قافية الدال لتكون رويا لقصيدته على نحو ما صنع الأعشى في داليته التي مطلعها :

ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا (٣)

وعلى غرار حسان بن ثابت في داليته المشهورة :

بطيبة رسم للرسول ومعهد منير وقد تعفو الرسوم وتهمد (٤)

وتكتمل دائرة التقليد والحرص استكمال العناصر الموسيقية بالتكرار لعبارة (ارجع إليه) التي تنقلنا إلى أجواء الإنشاد في حلقات الذكر ، فضلا عما ينا

---

(١) السابق ٥٠٧
(٢) السابق ٥١٤
(٣) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس تحقيق محمد حسين ١٧
(٤) شرح ديون حسان بن ثابت الأنصاري ت عبد الرحمن البرقوقي م التجارية ٨٩

بالتكرار من التأكيد على أهمية الرجوع إلى الهدي النبوي والسير على نهجه القويم .

ثانيا : الاغتراب

الاغتراب ظاهرة إنسانية وشعور سائد لدى كثير من الشعراء ولو لم يغتربوا عن أوطانهم لأنهم ينشدون المثال ويجهدون أنفسهم في هدم التناقضات التي تعج بها حيوات البشر فضلا عما استقر في نفوسهم من إحساس بالتفرد والتميز، (فالشعراء بعامة في غربة دائمة ومن ثم تراهم يحملون أشعارهم ضجيج أرواحهم الشفافة وزفرات نفوسهم الرقيقة بعد أن ارتوت من كل روافد الغربة فتجيء الكلمات عالية الرنين وينطلق الشدو شجي الإيقاع)[1].

وشاعرنا واحد من أولئك الغرباء الذين قست عليهم الحياة المادية فأحالت أغانيه بكاء وأشعاره شكوى وحياته ضياعا واغترابا ، ومن ثم لا نعجب حين يتخير لنفسه هذا المتنفس النابع من عقيدته الدينية وامتلاء نفسه بحب النبيﷺ والتعلق به والتوسل إليه في الشدائد والمحن ، وها هو ذا يُفضي إليه بما تحويه نفسه من الشعور بالألم والغربة ويتوسل به على همومه وأحزانه فيقول :

أنا امرؤيا رسول الله مبتئس	حيران يغلق دوني كل مفتوح
أقول للطير إن ناحت على فنن	روحي أسألي عن شجوني وارجعي نوحي
أنا وأنت حليفاً لوعة ونوى	طول الليالي فأخفي الوجد أو بوحي
قص الزمان جناحي ثم غادرني	أمشي مع الهمّ مشي الريش في الريح
لا الحادثات تأنت في مطاردتي	ولا دمي بات يوماً غير مسفوح
ولا الزمان رثى لي يوم عاصفة	وهل رثى ذابح يوما لمذبوح

(١) الغربة في شعر الشافعي د. صفوت زيد مطبعة التركي بطنطا ط أولى ١٩٩٧/ ٣١

لا شيء يحسن حالي غير قافية أصوغها مدحاً في خير ممدوح(١)

لقد انهارت عزيمة الشاعر وخارت قواه وانهمرت أحزانه بين يدي الرسول بعد أن تكشف له الزيف الذي ران على الحياة ، ولعل هذا الضعف النفسي هو ما دفعه إلى استدعاء تلك العادة الجاهلية البغيضة وهي التطير والتشاؤم من حركة الطير، وسرعان ما يضفي عليها الشاعر من عواطفه الإيمانية ما يصرفها إلى نوع من الألفة والتشابه، فالطير لا يصدر عنها إلا النوح والبكاء، والشاعر قد أحال قصائده شكوى واغتراباً، وعلى هذا النحو البائس يمضي الشاعر قصيدته متخبطاً بين لجج الحياة ودوامات الحزن حتى ترسو سفائنه الحيرى بشاطئ النبوة الحاني وبالساحة المحمدية حيث طمأنينة القلب وراحة النفس وهدوء البال.

وتنداح دائرة الاغتراب والشكوى والتوسل بالنبي في الأعم الأغلب من قصائده الثماني والعشرين لدرجة تمثل تياراً يسري في مدائحه ويستحوذ على اهتمامه ، يدل على ذلك قصيدته الذالية التي منها:

أعوذ من الهمّ الذي بين أضلعي بك اليوم يا خير الأنام عياذا
سبقت شقائي في شبابي جميعه فأدركني بعد المشيب وحاذى
أنا المرء ذو جرحين خاف وظاهر ويا ضيعتي ما بين ذاك وهذا
أظن الليالي راقها نثر أدمعي وإلا إلام العسف بي ولماذا
مددت يميني للزمان مسالما فأعرض عني واستبد وآذى
فأصبحت في ثجاج همّ يزج بي إلى غيث همّ لا يزال رذاذا
أروح بهمّ ثم أغدو بغيره وسهم اصطباري لا يجيد نفاذا
فقل لليالي السود يخجلن مرة ويكشفن آلاما أتين لواذا
وقل للزمان ارحم وكف عن الأذى فقد لجأ العاني إليّ ولاذا(٢)

(١) الديوان الكبير، ٢٠٦.
(٢) الديوان الكبير ٢١٠.

لقد ضاقت الآفاق على رحابتها بالشاعر وضاق بها، وسرى الإحباط في أوصاله ، وتسلل اليأس إلى نفسه وروحه ، وتساقطت دموع الأسى من عينيه ، واستحالت لياليه ظلمة حالكة وسوادا لا يرجى له ضياء ، فاتجه نحو الساحة النبوية طالباً العون والهداية.

ومن بواعث الاغتراب ودواعي التوسل بالشخصية النبوية ما رزئ به الشاعر من العسف والظلم حين ابتلي بسجن أبيه دون ذنب أو جريرة ، ومما قاله في قصيدته التائية :

أظلمت في ظلمات الليل آهاتي ... فهل سمعت ندائي واستغاثاتي
يا أكرم الرسل آفاتي منوعة ... ومن سواك أرجّيه لآفاتي
متى اعتصمت بحبل منك متصل ... فليس يفزعني عادٍ ولا عات
تناهبتني الليالي غير راحمة ... قلبي الضعيف وشدّت في قيوداتي
وناثرت من زهوري كل ذي أرج ... ونفَّرتْ كل آس من جراحاتي
وباعدت بين أحبابي فبعضهمو ... جار السجون وبعض جار أموات(١)

والشاعر يبدئ ويعيد في شكاياته بعد أن استحالت لياليه ظلمات وأسباب أنسه وحشة ، وكأن السجن لم يكن قصراً على الوالد الأسير والأب المكلوم، وقد حشد شاعر البراري للتعبير عن شكواه ألواناً من التناص وصنوفاً من المحسنات وعدداً من الصور الشعرية الباذخة، وحسبي أن أشير إلى التناص في قوله : (متى اعتصمت بحبل منك .... البيت) الذي يدل على محاولات الشاعر أن يبث العزم في نفسه الواهنة بعد الرزء الجلل والخطب الفادح، والجناس بين (عاد وعات) وهو يوحي بالتحدي الصارم والمجابهة الضارية لقوى الشرّ والعدوان ، وبرغم محاولات الصمود فإن قسوة الليالي وصروف الدهر كانت أشد قسوة وفداحة، ولقد صورها الشاعر في صورة طوفان جارف سرعان ما قضى على

(١) السابق ٢٠٢.

سكينة النفس وطمأنينة القلب وضاعفت ما كبله من قيود وبعثرت ما كان يدخره من الصبر والجلد.

وتأتي قصيدته العينية لتسلط الضوء على الحزن العميق والألم الممض الذي أعقب سجن الوالد وما خلفه في قلوب بنيه من أسى وحسرة ، ومما قاله:

اثنان يا سيدي مخفيهما خجلا	وقاطع منهما أحبال أطماعي
اثنان : ضم السجون المظلمات له	بعد السجود وجدبي بعد إمراعي
محمد يا حمي المظلوم يا مدد الـ	ـمحروم يا ملء أنظار وأسماع
يا مصدر العطف يا كشاف مظلمة	يا نور مظلمة يا برء أوجاع
نعيت بعضي إلى بعضي وجئت إلى	حماك فاعطف على المنعي والناعي
كن لي فإن زماني صدّ في صلف	وأوصد الباب مصراعاً بمصراع(١)

والشاعر في غربته وتوسله يتكئ على التكرار والنداء بما يدلان عليه من الاستعطاف وتصاعد الشكوى وارتفاع نبرة الحزن والألم : (ياحمى المظلوم ، يا مدد المحروم ، يا ملء أنظار وأسماع ، يا مصدر العطف ، يا كشاف مظلَمة ، يا نور مظلِمة ، يا برء أوجاع) ولا غرابة فلقد علت نبرة الأسى ولوعة الحزن وتزايدت حاجة الشاعر إلى البث والإفضاء والتعبير عن الأمل في النجاة والخلاص ولا غرابة فقد كان سجن والده إيذانا بفقد الأنس والبهجة ، ورزئ بالفقر المدقع بعد الكفاية والغنى .

ثالثا : التنصل من الذنوب والمعاصي

وهو شعور إيجابي يدل على يقظة الحس الديني لدى الشاعر ويؤكد حرصه أن تظل صفحته بيضاء نقية ، ولعل هذا ما عبر عنه في همزيته التي مطلعها:

إن حال ما بيننا بحر وصحراء فللرجاء إليك اليوم إسراء

(١) الديوان الكبير، ٢٢٦.

ومنها قوله:

بعثت حرّان آمالي وظامئها ... يستصرخان فأنت الظل والماء
قسا الزمان ولكن لن يضعضعني ... ففيك عين وطاء بعدها فاء
قالوا أقدمت شيئا تستحق به ... نيل الدواء الذي يشفى به الداء
فقلت لا تقنطوني من عنايته ... فقد تباح لغير الكفء حسناء
يا ساكن الروضة الفيحاء بي ظمأ ... وقد تلبي نداء البيد أنداء
صقلت أنت قلوب الناس من قدم ... فاصقل فؤادي ففيه اليوم أصداء
خففت نحوك لما أظلمت سبلي ... وأثقلتني أوزار وأرزاء
وهل خلافك صبح يستنار به ... إذا دجت وخبت في النفس أضواء(١)

يتوجه الشاعر إلى الساحة المحمدية في رحلة إيمانية مفعمة بالتجليات الربانية ، فيها للظمآن ري وللبائسين رحمة وللمذنبين عفو وغفران ، وتتبدى منذ البيت الأول معالم الاستجداء للعطف النبوي والتودد إليه صلى الله عليه وسلم بتلك الإشارة إلى رحلة الإسراء والمعراج التي تعد من أحب الرحلات إلى قلب النبي برغم ما يكتنفها من مشقات نفسية وجسمية هي مظنة الاستجابة للشاعر المتوسل والمذنب الطامع في العفو برغم تزايد المعاصي وتكاثر الذنوب .

وفي قصيدته الرائية يتوجه الشاعر بالشكوى إلى النبي راجيا أن يفيء عليه من نوره ويفيض عليه من حدبه وعطفه فيقول:

يا ثاني اثنين يوم الغار لي غار ... من المعاصي بعيد الغور غوار
هربت فيه ومن إلاك ينقذني ... أم من خلافك يا مختار أختار
أتملأ الأرض نورا ثم تتركني ... أضل في ليل أوزاري وأحتار
أنا امرؤ يا رسول الله مضطرب ... كلّي هموم وأرزاء وأوزار

(١) الديوان الكبير ١٩٩.

قصرت في طاعة الله الذي خضعت ... له المواقيت آصال وأسحار
وما تشاغلت في الدنيا وزخرفها ... ولا تملّكني حرص وإيثار
وإنما الهمّ ألهاني وأقعدني ... كالروض طاف به جدب وإعصار(١)

والشاعر يبدو في حال من التململ والاضطراب بعد أن احتوشته المعاصي وتكاثرت عليه الذنوب، يدل على ذلك تكرار تلك المادة اللغوية (غار ، غور ، غرار) بما تدل عليه من الخفاء والغموض ، فضلا عما يتسم به حرف الغين من الاهتزاز والاضطراب إمعانا في التعبير عما يختلج في صدره من رغبة في الخلاص وعزم على التوبة وصدق في المناجاة ، ولقد وشى الشاعر أبياته بعدد من المحسنات البديعية التي يناط بها التزيين الذي يناسب الحضرة النبوية والبهاء المحمدي ، وتكفي الإشارة إلى الطباق بين (النور والليل) للدلالة على ما تحمله الرسالة المحمدية إلى البشر من معالم الهدى ومشاعل الضياء والنور التي أطاحت بجحافل الظلام وقضت على عصور الغواية والضلال.

وإمعانا في التوسل والاستعطاف يمضي الشاعر في قصيدته مصورا آثار تلك الهموم على نفسه الواهنة وروحه المعذبة فيقول:

في كل يوم من الأيام تخطبني ... كواعب من خطوب الدهر أبكار
حليهن دموعي والمهور دمي ... والأوصياء مقادير وأقدار
تطلّق الأمن من قلبي وتتركني ... كالشاة من حولها ذئب وجزار(٢)

وما أدق تلك الصورة التي تتراءى فيها الهموم في صورة فتيات بين بكر وكاعب ، ولقد استكمل الشاعر لهن الحلي والمهور والأوصياء بيد أن تلك الآصرة العجيبة بين الشاعر وآماله المرتقبة وأمنه النفسي المنتظر ما لبثت أن آذنت

(١) السابق ٢١٢.
(٢) الديوان الكبير٢١٢.

بالفراق تاركة الشاعر المسكين نهبا لمشاعر الخوف والفزع أشبه بشاة مذعورة يتهددها الذئب من ناحية والجزار من ناحية أخرى .

وفي القصيدة التالية يبلغ الاستعطاف أبلغ آماده ومنها قوله:

ما لي سوى يثرب دار أهيم بها	ولا سوى ساكنيها الغرّ أحباب
يا غرّة في جبين الدهر مشرقة	يزهو بها الكل أعجام وأعراب
يا من لقيت أذى الأعداء في أحد	وما تململت والكفار أحزاب
لي فيك أسوة صبر أنت تعرفها	لكنّ عزمي وَهَى فالهمّ غلاب
أجدبت يا سيدي في كل ناحية	وإن عطفت فبعد الجدب إخصاب
كن لي ففوقي ذنوب لا عداد لها	قهقرنني ولسوء الحال أسباب(١)

والأبيات تمثل لونا من التداخل بين شكوى الذنوب والمديح النبوي المباشر فقد دأب الشاعر على الاستعطاف والتنصل من الذنوب والأوزار التي رزئت بها نفسه المعذبة مستلهما صبر النبي وصحبه الأبرار في أحد ومستدعيا تلك الأحداث التي واجهها بالصبر والجلد فكان أسوة للمبتلين على مرّ العصور، ولا شك أن الاستدعاء للأحداث والأمكنة المقدسة يمد المرء بذخيرة نفسية وشحنة إيمانية يقدر بها على مجابهة آلام النفس ونوائب الدهر .

وتبقى الإشارة إلى المزالق التي انحدر إليها الشاعر بوعي أو بغير وعي حيث يلتمس العون والمدد والحفظ من الرسولﷺ ويجأر إليه بالدعاء في بعض الأحيان وكان أولى به أن يتوجه بالشكوى إلى الله وحده ويستعين به دون سواه وتلك إحدى المسلمات الدينية والثوابت العقدية ، ومن النماذج التي تظهرنا على تلك المزالق والانحرافات قوله :

أتموت آمالي وأنت حياتها	وأضيع في الدنيا وأنت حفيظ

(١) الديوان الكبير ٢٠١.

وقوله:

عطفا عليّ فليس يهلك مطلقا رجل بعطف محمد ملحوظ(١)

وقوله

إذا لم أستظل بظل طـــه إذا فبأي ظلّ أستظـــل(٢)

بيد أن هذا النهج قد ساد كثيرا من المدائح النبوية على مرّ العصور بـــرغم ما يكتنفه من مزالق وانحرافات (فالتوسل بجاه الرسول ﷺ وطلب شفاعته يـــوم القيامة يمثل دافعا مهما من دوافع نظم قصيدة المديح النبوي ، ولا تكاد تخلو منه قصيدة لأنه يعد المثير الانفعالي الذي يحفز الصياغة إلـــى مزيـــد مـــن الإتقـــان والإحكام والتجويد ويجعلها مؤثرة في نفوس المتلقـــين ، لأن الـــدعاء والتوســـل وطلب الشفاعة مطالب مشتركة بين المبدع والمتلقي في قصائد المديح النبوي)[٣]

أضف إلى ما سبق وقوع الشاعر في إسار مسالك المتصوفة برغم معاداته لهم ومحاربته إياهم ، فتراه ينظم قصيدة بأكملها ويختار لها عنوان : (إلى إصبع رسول الله) وفيها يظهر التبرك والتوسل بظل إصبعه ﷺ ومنها قوله :

يا ظلّ إصبع أحمـــد يا تاركا قلبي المعافى في الضلوع جريحا

لح في مسائي تستقر مضاجعي أو في صبـــاحي يستمر صبيحـــا

يا ظل إصبع أحمد يا جـاعلي طيرا أحلّق في حمـاك طموحـــا

امنح جنـــاحي قـــوة وهداية أبدا ووضّح نهجـه توضيحا(٤)

---

(١) السابق ٢٢٥.

(٢) السابق ٢٣٥

(٣) قصيدة المديح النبوي د. أسامة البحيري نادي تراث الإمارات ٢٠١٣/ ٧٦

(٤) تأملات مع الحياة ٣٥٢.

وتبقى الإشارة إلى وقوع الشاعر في إسار التكلف والرغبة في استكمال العناصر اللفظية التي ألزم بها نفسه في شعره بعامة ومدائحه النبوية بخاصة ومن ذلك قوله :

إني أخو الكسر فاجبره على عجل ... وعاتب الدهر في حالي الذي حلكا
مضاعف العزم أمسى في بساطته ... وقاسم الهمّ صار اليوم مشتركا
وإن ضمن حسابي أن ستجمع لي ... قلبي وتطرح منه الهمّ مشتبكا(١)

وهذا لا يعدو حد التلاعب بالألفاظ الرياضية كالجبر والكسر والمضاعف والبسيط والجمع والطرح وغيرها.

ومن ذلك أيضاً قوله :

يا رسولا مرتجيه ليس يخزى ... هزّني الشوق إلى لقياك هزّا
واستفز الحب شعرى فهمى ... وكذاك الحب إن فاض استفزا
وكسا مدحك شعري رونقا ... وكسا الوجدان بعد الذل عزا
يا أرق الخلق خلقا ما ترى ... في ضعيف حزّ فيه الدهر حزّا
استذلته الليالي فانثنى ... نحو طه مستعيذا مستعزا(٢)

والأبيات تبدو عليها أمارات التكلف وأظهر ما يدل على ذلك القوافي القلقة والمحسنات البديعية المتكلفة.

وقوله في القصيدة الخائية:

ياراكبا متن الطبا ... ق على البراق الأبلج
وملائك الرحمن تهـ ... ـتف حين ذاك بخ بخ
يا خير من ناداه جبـ ... ـريل الأمين بيا أخي

(١) السابق، ٢٣٣.
(٢) تأملات مع الحياة ٢١٤

يـــا صـــاحب القلـــب الرحيـــ ـــم وصـــاحب الكـــف الســـخي
هـــا قـــد فـــررت إليـــك مـــن نســـــر الهمـــــوم المفـــــرخ
مستصـــرخا بـــك يـــا غيـــا ث الخـــائف المستصـــــرخ(١)

ومن أمارات التكلف في تلك الأبيات ما حشده الشاعر من ألفـــاظ غامضـــة وكلمات مبهمة وعبارات لا تنسجم مع السياق العام للقصيدة، وتكفي الإشارة إلى كلمات (الأبلخ ، بخ بخ ، الرخي... إلخ) أضف إلى ذلك ما يوحي به البيت الثالث من الفتور العاطفي برغم كونه يتضمن الحديث عن الرابطة المقدسة بـــين خـــاتم الأنبياء وأمين وحي السماء، بالإضافة إلى استجلاب الصور الذي يتضح في ادعاء الشاعر تفريخ النسر للهموم والآلام وهو وصف أبعد ما يكون عن طبيعة النسور الشامخة والطيور الآبيّة، ناهيك عن كونها مجرد صور جزئية عجز الشاعر عـــن الربط بينها وبين نظائرها في القصيدة برغم ما يجمع بينها من العلو والارتفـــاع سواء في ذلك البراق النبوي والهتاف الملائكي وتحليق الطائر الأبيّ .

(١) الديوان الكبير ٢٣٢

المبحث الثالث

التأمل في مجالي الكون ومظاهر الطبيعة

مظاهر الطبيعة والحياة آيات من آيات الله عز وجل، تدل على قدرته ووحدانيته وعلى الأدباء والشعراء أن يتأملوا فيها، ويقفوا على أسرارها العجيبة التي تذهل العقول وتهز الأفئدة والقلوب ، فيزداد المسلم إيماناً على إيمانه وقوة في عقيدته على قوته ، وهي مجال خصب للتعرف على الله عز وجل من خلال آياته العجيبة في الكون والحياة ، وهذا الغرض يعطي الأدب الإسلامي عطاء موفوراً في شعر قوي عميق ومؤثر يأخذ بالعواطف والقلوب والألباب)[١]

وشاعرنا واحد من الذين أغرموا بالطبيعة وأطالوا الوقوف عند مظاهرها المختلفة ومجاليها المتنوعة ، ولعل هذا ما دفع بعض الباحثين أن ينسبه إلى التيار الرومانسي فنظر إلى رؤيته للطبيعة على أنها أقرب إلى مسالك الرومانسيين ، يقول الدكتور مصطفى أبو شوارب في إطار الحديث عن الظواهر الفنية في شعر محمد السيد شحاته : (ونستطيع القول بغير قليل من الاطمئنان إن هذا الميل الواضح إلى التجديد كان نتيجة حتمية لتأثر شاعر البراري بذيوع الاتجاه الرومانسي وغلبته على حركة الحياة الشعرية في مصر منذ ثلاثينيات القرن العشرين ، وكان من أبرز آثار هذا الميل ذلك الانصراف الواضح إلى الطبيعة حتى أن الشاعر ارتضى لنفسه لقبا مستمداً من مفرداتها التي غلبت على نصوصه الشعرية)[٢].

ويقول الدكتور ماهر الجبالي في إطار الحديث عن المنظور المثالي للقرية في شعره : (فإن القرية عنده تمثل النموذج المتكامل للخير والجمال والهدوء قد

---

(١) الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، د. علي صبح ١٧٧.

(٢) ينظر: مقدمة ديوان تأملات مع الحياة ٣٠.

عاش معها في عالم أحلامه يخاطبها ويعرض عليها شكايته هروبا من واقعه كعادة الرومانسيين المثاليين) [١]

والحق أن الشاعر ــ في كثير من الأحيان ــ قد اتخذ من مظاهر الطبيعة ملاذا من همومه ومهرباً من آلامه وأحزانه مقترباً من تلك التخوم الرومانسية التي هيمنت على الشعر في تلك الحقبة وصادفت هوى لدى كثير من طوائف الشعراء في العصر الحديث ، بيد أن الأعم الاغلب من قصائده تدل على مسلك خاص ورؤية فريدة لمظاهر الطبيعة عمادها التأمل في مظاهرها واستجلاء القدرة الإلهية في مجاليها والإصغاء إلى ما تبثه في روع المسلم من عظات وعبر ، ولعل مما يؤكد ذلك رفض الشاعر فكرة الحلول والاتحاد التي اتخذها الرومانسيون أساساً لنظرتهم إلى الطبيعة : (فقد كانوا يضفون على المناظر الطبيعة مظاهر إلهية فيتحول حبهم إلى عبادة ويزعمون أن الله في الأشجار والرياح والصخور والأزهار والبسمات والأمواج وينتهون من ذلك إلى أن الطبيعة هي الصورة المحسوسة للألوهية ، ومن هؤلاء من يزعمون أن الله في الطبيعة أو هو الطبيعة)[٢].

وإمعاناً في رفض شاعرنا لمسالك الرومانسيين نراه ينظم مقطوعة يعلن فيها رفضه القاطع لمبدأ الحلول ويقدم لها بقوله : (حلول الخالق في المخلوق فكرة كفرية يأباها العقل والنقل ، ومما جاء فيها :

العقل يرفضها ولا يرضى بها ... أبداً ودين محمد يأباها
هي فكرة كفرية نادى بها ... سفهاء لا يدرون ما عقباها

(١) صورة القرية في الشعر المصري في النصف الأول من القرن العشرين بين المثالية والواقعية رسالة دكتوراه للدكتور ماهر فؤاد الجبالي مخطوطة بكلية اللغة العربية بإيتاي البارود ٢٠٠٥/٥٥

(٢) الرومانتيكية د. محمد غنيمي هلال نهضة مصر ٥٥

قام الخيال أو الخبال بدوره فيها ويا ويل لمن لباها(١)

وأهم مما سبق وأجدر بالتسجيل أن شاعر البراري لم يغادر مظهرا من مظاهر الطبيعة وقع عليه بصره في ارض ولا سماء إلا وقف أمامه واصفاً ومصورا ومستجليا معالم القدرة الإلهية ومظاهر الهندسة الربانية ، يقول الأستاذ محمد فريد أبو حديد : (وشاعر البراري يحب الإنسانية ويعطف عليها ويحس ما فيها من السعادة التي أفاضها الله على الزهر والطل والبرد والحر والنسيم والنجم والطير والجدول ، فهو يدعو الإنسانية إلى التملي بما في تلك الطبيعة من مباهج ، والاغتراف من عذوبتها وسلافها حتى تمتلئ ، فشعره ينفح نفحا بالرضا والسعادة حتى ليخيل إلى من يقرأ شعره أنه باسم أبدا منشرح الصدر أبدا مستبشر أبدا ، ممتزج أبدا بذلك السلام الشامل ، وبتلك الحياة السرمدية التي تشيع في الكون البديع) [٢] وفيما يلي عرض لأبرز ملامح الطبيعة لدى شاعر البراري :

أولاً: الطبيعة الأرضية:

كان ميلاد شاعر البراري في إحدى القرى وارتباطه الوثيق بالبيئات الريفية دافعا قوياً إلى صياغتها شعراً وتحول ديوانه إلى حدائق غنّاء وبساتين يانعة وعوالم شتى ودنيا آسرة من الفن والإبداع ، ولا غرابة (فلقد أحب الرجل موطنه ومسقط رأسه فأخذ ينظم الأشعار متغنيا بجمال قريته واصفاً لرباها عاشقا لترابها برغم شعوره بما يكتنفها من الظلم والهوان) [٣].

(١) الديوان الكبير ٤٨٣.

(٢) ينظر: تقديم الجزء الثاني من الديوان الكبير، ص٤٠٧.

(٣) صورة القرية في الشعر المصري د. ماهر الجبالي ٥٦

وفرق بين الغناء العابر وبين العشق الذي يملك على المرء أقطار نفسه والانتماء الذي يجعل المكان جزءاً من تكوينه وحسه ، فشاعرنا برغم تعدد موضوعاته وتنوع نتاجه لم يرتض لنفسه لقبا غير شاعر البراري ، ولم يقبل أن يرتبط اسمه بشيء سوى القرية المصرية والبيئة الريفية وطبيعتها النقية ، ومن ثم فقد نجح في وصفها بكل تفاصيلها واقتدر على صياغة هذا العالم الفطري صياغة تدعو القارئ لإعادة النظر وتصويب الرؤية لهذا العالم من الفطرة والبراءة والطهر والنقاء ، ونبدأ بمقطوعته التي اختار لها عنوان (القرية) وفيها يعبر عن مكانتها في قلبه وما تحويه من مظاهر الجمال وأمارات الحسن ، ومما قاله موضحاً بواعث العشق ودواعي الانتماء والإيثار:

ملكتها من فؤادي السرّ والعلنا ... وما تعشقت إلا وجهها الحسنا
مهد الجلال وميدان الجمال ومرْ ... قاة الخيال حماها الله لي وطنا
وقفت عيني على دنيا أزاهرها ... كما وقفت على أطيارها الأذنا
فهذه في فضاء الأفق سابحة ... كأنما الأفق صدر وهْي سرب مُنى
تفتن في الصدح إن حطّت على فنن ... كأنها كلفت أن تنطق الفننا
وتلك في روضها النشوان باسمة ... للوافيين لها : فلاّحها وأنا
تبيع للجوّ أنفاسا معطرة ... والجوّ ينقدها درّ الندى ثمنا(١)

فالقرية هي المحبوب الأثير والعشق الأزلي للشاعر الذي رأى فيها مهد الجلال ومظهر القدرة الإلهية ، وهي دون سواها ميدان الجمال المحبب ومظهر الطبيعة الساحر فلا غرابة أن يختارها الشاعر وطنا وملهما ويتفنن في صياغة هذا العالم الذي استحال في تلك الرؤية الشعرية البارعة مزيجاً من الأزاهير العطرة والطيور الشادية ، ولقد أحسن الشاعر الإفادة من كونها مرقاة للخيال فحلق في أجوائها مصورا الطيور السابحة في صورة سرب من الأماني ترقد في

(١) الديوان الكبير ٣٩٤.

هدوء على صدر الفضاء المتراحب والكون الفسيح ، وهي صورة توحي بما يزدحم في صدر الشاعر من الأمنيات، ولا يتوقف الإفضاء والإلهام عند هذا الحد بل يتعداه إلى الطائر الذي ألهم الشاعر التغريد الأثير والشدو المحبب ، ثم يعاد التحليق في عالم الطبيعة والرافد الثاني من روافدها الجمالية، وهو الورود والأزهار فإذا هي تتبدى في صورة باسمة تعبر عن أرقى صور الوفاء والامتنان للشاعر والفلاح حيث تفيء الأزهار على الكون بأنفاسها العطرة فتجيبها الأجواء بالأنداء.

وفي قصيدة (البلبل) ينطلق الشاعر من رؤية إسلامية واضحة جلية فترى التأمل في أبهى صوره والضراعة في أرقى معانيها:

الله أكبر دمع الفجر ينحدر	على الغناء الذي مذياعه الشجر
على الربى بلبل يشدو بها سحرا	وهكذا السحر يأتينا به السحَر
تسيل أنغامه والناس نائمة	وحسبه المعجبان : النجم والقمر
لو كان يخطب إعجاب ابن آدم لم	يعجل بألحانه بل كان ينتظر
سبحان ربي، مغني الأيك أغنى عن	إعجابنا ومغنّي الحي مفتقر
ينأى بألحانه عنّا وعن أمم	من الطيور لها في الدوح مؤتمر
كأنه عابد يخفي عبادته	أو عاشق يتوارى حين ينصهر(١)

فهذا البلبل الغريد الذي يصدح في الكون من فوق الربى لا يقرّ بالفضل إلا لربه ولا يمتن إلا لخالقه الذي أنعم عليه بهذا الصوت الشجي ذي النغم الآسر، وما أبدع هذه الصورة التي تضافرت مع تلك الأجواء الروحانية ، فالبلبل الصادح بالأنغام العذبة يتبدى في صورة العابد الخاشع تارة والمحب الوجل تارة أخرى ليعبر عن انضواء الكون بأطياره ونجومه وأقماره تحت راية العبودية ولواء الخضوع للخالق جل في علاه.

---

(١) الديوان الكبير ٣٦١.

وبدهي أن ترى شاعر البراري حفيا بنيل مصر وشريان حياتها ورافد الخير في مدنها وقراها، وأهم من ذلك ما يتجلى في قصائد الشاعر من روح الامتنان للخالق، والشكر له سبحانه على نعمه وآلائه ، والتحليق في أجواء العبادة والتسبيح ، ومما قاله :

هواك يا مصر يحدو النيل في الوادي ... يا بارك الله في المحدوّ والحادي
مذاب تبر جرى بين الزبرجد في ... وادٍ من المسك جلّ الخالق الهادي
صادي الجوانح شوقاً مرتوٍ أملا ... أنا الفداء لهذا المرتوي الصادي
خلف الربى عندما فاضت جداوله ... غيدا مراضا تلقت عطف عواد
وخلت مجراه محرابا وخلت أغا ... ريد البلابل تسبيحات عباد(١)

والشاعر في قصائده عن النيل وغيره من مظاهر القدرة الإلهية التي حبا بها مصر يتكئ على استشعار النعم الربانية والاعتراف بالعظمة الإلهية ، يؤكد ذلك الدعاء الضارع (يا بارك الله) والتمجيد للخالق جل في علاه (جلّ الخالق الهادي) والتصوير المنبثق من روح الإيمان وأجواء العبادة ، ولا غرابة فلقد أمدت تلك الأجواء الروحانية خيال الشاعر بعناقيد الصور وألوان التشبيهات فترى النيل تارة محدوّا من النسائم المصرية المحببة وهوائها العليل، وتارة أمواجاً فضية وسلاسل ذهبية وأودية من المسك، وتارة صاديا من فرط عشقه للروابي وأخرى مرتويا من خيره الفياض.

وكثيراً ما تتردد تلك النغمات الإيمانية التي نظمها شاعر البراري عن النيل ، ومما قاله في قصيدة (الفيضان) التي احتفت بها الصحف المصرية آنذاك:

اخلع على مصر ثوبا وشيه الذهب ... ما أنت ضيف لها بل أنت أنت أب
أب أبيّ وفيّ صادق أبدا ... ما في سجاياك لا غدر ولا كذب

(١) السابق٢٣٣ .

شيخ كبير ولكن قد وقفت على ... سنّ الشباب فشابت دونك الحقب
استقبلت فيك مصر رحمة ومنى ... ولن تخيب منى للنيل تنتسب
استقبلتك أبا قد هزّه طرب ... إلى لقاها كما قد هزّها طرب
استقبلتك فطير هاتف وربىً ... مدت غصوناً وكادت للّقا تثب(١)

وأظهر ما يروق السامع لتلك الأبيات نغماتها العذبة وإلقائها الآسر وتخير الشاعر وزن البسيط الذي يفيض عذوبة وابتهاجا بالإضافة إلى روي الباء المضمومة الذي أضفى على النص أنغاماً موسيقية شاركت في تكثيف الأنغام والإيقاعات ، والمتأمل فيما حشده الشاعر من أوصاف النيل يلحظ الانطلاق من قيم الإسلام وأخلاقه وتعاليمه ، وما الوفاء والإباء والصدق والرحمة إلا نماذج رائعة لهذه القيم الباذخة وتلك التعاليم الخالدة ، وما الرفض للغدر والكذب ونظائرهما من الصفات السلبية إلا انطلاقاً من كراهية الدين لهذه الصفات المنحرفة والسلوكيات البغيضة ، كما أن إيمان الشاعر بتلك الهبة الربانية وهذا العطاء الإلهي قد ألهمه كثيراً من بدائع الصور وروائع المجاز، وليس أدل على ذلك من أبوة النيل لمصر وما خلع عليه الشاعر من ثوب الشباب برغم مرّ السنين وكرّ الدهور الذي هو مظنة الهرم والشيخوخة ، وما أروع الاستقبال والحفاوة التي حظي بها النيل من مصر وهاهي ذي تخف للقائه وتصطف للترحيب بقدومه الميمون يؤازرها في الحفاوة طيرها الشادي ورباها الخضراء وغصونها الوارفة فضلاً عن قلوب المحبين وأرواح العاشقين.

وكما يتوقع القارئ الكريم فقد حظي الريف بكل تفاصيله والقرية بجميع دقائقها بعناية شاعر البراري وكان لها من غنائه وبكائه أوفر حظ وأوفى نصيب ، ومن ثم فلا نعجب حين نجد في ديوانيه وصفا للفلاح والساقية والمحراث وزراعة القطن والأرز والقمح والبرتقال والبطيخ والنارنج ورعي الأغنام بالإضافة إلى

(١) تأملات مع الحياة ٩٥.

ألوان الشجر وصنوف الحيوان كالجمل والبقرة والكبش والقط والطير كالهدهد والحمامة وأبو فصادة وأبو قردان والأسماك والقنفذ وغيرها من مكونات القرية المصرية ،

والشيء الجدير بالذكر أن الشاعر في كل ما يصف من هذه المكونات الريفية المحببة إنما ينطلق من إيمان صادق ورغبة مؤكدة وحرص دائم على التعبير عن العظمة الإلهية والامتنان للمقدرة الربانية فلا تكاد تخلو قصائده من دعاء أو استغفار أو ذكر أو دعوة للتأمل أو صورة ترفدها روافد الإيمان ويبعث عليها اليقين والإذعان، ولنأخذ مثلاً قوله في وصف المحراث :

هو اليراع الذي اختار الإله له ... من أرض مصر ـ حماها الله ـ قرطاسا
يمده عرق الفلاح متصلا ... لردّ إيحاش وجه الأرض إيناسا
يغزو الحقول فلا تبدي مقاومة ... لأن ذلك غزو ينفع الناس(١)

وقوله واصفاً زراعة الأرز ومستلهما صورة المؤمن وصحيفته البيضاء ومتعاطفاً مع الفلاح ومستجلبا له السعادة بالدعاء والتضرع :

أشاهدته إذ يصقل الحقل بينما ... يبيض منه الماء ما كان أسودا
وهل هو حقل أم صحيفة مؤمن ... تبيضها التقوى ويصقلها الهدى
أشاهدته في ثوبه الرث عندما ... مشي في لجين الماء يبذر عسجدا
بربك إن شاهدته مرة فقل : ... لك الله يا فلاح تشقى لنسعدا
إذا مرّ أسبوع نرى تبر أرزه ... على فضة الماء استحال زبرجدا
وعند بلوغ النبت خمسة أشهر ... ترى خبرا في الحقل قد صار مبتدا(٢)

(١) الديوان الكبير ٣٩١.
(٢) الديوان الكبير ٣٩٢.

وانظر لتلك السمكة وما خلع عليها من أوصاف الحياء والتقى لتظفر بأروع ما وصفت به الأسماك من أشعار:

جســـمانها فلـــق الصـــبا ... ح وذيلـــها شـــفق الغـــروب
ولباســـها بـــين الـــورى ... بَـــرَد ولكـــن لا يـــذوب
تطفـــو وترســـب في الجـــدا ... ول كالصـــبابة في القلـــوب
وتفـــرّ حـــين تـــرى ابـــن آ ... دم كـــالتّقي يـــرى الـــذنوب
ترجـــو الســـلامة بـــالفرا ... ر، وإنـــه أمـــل كـــذوب
كيـــف النجـــاة وهـــذه الشبكـــ ... ات مـــن نســـج الخطـــوب(١)

ويقول أيضا:

بنت الغدير اختفت في الماء واستترت ... كأنما هو صدري وهي أســـراري
أتختفـــي عن عيون الناس خائفـــة ... أم تختفي خجلا من جسمها العاري
تكفل الله بالرزق الرغيد لهـــــا ... في راكد الماء أو في الجدول الجاري(٢)

ولم تحرم الضفادع البائسة من عناية الشاعر فقد صورها في صورة تهتز لها قلوب المؤمنين وتذرف من أجلها دموع العارفين:

أطيلـي نقيقـك يـا ضـفدعة ... فصـــوتك يهتـــز قلـــبي معـــه
إذا نفـــر النـــاس منـــه فـــبي ... حـــنين وشـــوق لأن أسمعـــه
تبيـــتين ليلـــك تستغفريـــ ... ـــن للنـــاس في الترعـــة المترعـــة
وتبـــــــتهلين إلى الله أن ... يبـــارك في الـــزرع والمزرعـــة
لـــك الـــبر والبحـــر يـــا جـــارتي ... ولم تنســـك الله تلـــك الســـعة(٣)

(١) السابق ٣١٢.
(٢) السابق ٤٠٠.
(٣) الديوان الكبير ٤٠١.

وما أروع أن يتخذ الشاعر من وصف القمح دليلاً على قدرة الإله وطريقاً إلى مرضاته وسبيلاً إلى استجلاء عظمته والامتنان لنعمه وآلائه:

الله أكبر أي شيء أنت يا حبّ الحصيد
أندى تجمّد في السنا بل أم جمان أم قصيد
نظمتك في تلك السنا بل قدرة الله المجيد
فرفعت رأسك بيننا تيهاً بمظهرك الفريد
ونسيت أن الدهر يعبس للشقي وللسعيد
الله جل جلاله ذو فضلٍ وذو بطش شديد(١)

ويتصل بما سبق من مفردات القرية ومحاسن الريف ما أسهم به شاعرنا في وصف الربيع وما يخلعه على الأجواء من حسن أخاذ وفتنة آسرة انطلاقا من الهدي الإسلامي والدعوة القرآنية للنظر في الكون والتأمل في مجالي الطبيعة، وحسبنا في الدلالة على ذلك تلك الدعوة للتمتع بجمال الربيع والاقتداء بمظاهر الطبيعة في التعبير عن الامتنان والاعتراف بالفضل، ومما قاله:

يا صاحبيّ ألا انظرا أثر الربيع المبدع
من كل وارفة الظلا ل حنت حنوّ المرضع
تثني علي فضل الجدا ول بانحناء الأفرع
لا كابن آدم قلما يطري الصنيعة أو يعي
خفاقة تحت الهوا تذكي الهوى في الأضلع
وتمد أرباب الثرا ع بكل معنى ممتع(٢)

(١) السابق ٥٨٣.
(٢) السابق ٣١٢.

والربيع في تلك الرؤية الإيمانية والتصور الإسلامي هبة إلهيـــة ومعجـــزة ربانية ، فهو ملهم الزهر ومعلم الطير وسائق الخير وواهب النسيم وتلك إحـــدى رسالات الشعر وغايات الأدب.

وفي مقطوعاته عن (الوردة) يثني الشاعر على الله بما هو أهله ويتضرع إليه سبحانه ممتنا لعظمته التي أضفت على الكون ملامح الحسن ومظاهر الجمال فيقول :

على الأغصن الخضراء أنبتها ربي ... وقال ارمزي قالت رمزت إلى الحب
نداها ــ تعالى الله ــ رمز لأدمع ... تسيل بجنح الليل من أعين الصّبّ
ورقّتها رمز إلى لغة الهوى ... وحمرتها رمز إلى حرقة القلب
ونضرتها رمز إلى ساعة الرضا ... ونفحتها رمز إلى رقة العتب
وأشواكها رمز إلى ألم النوى ... وأوراقها رمز إلى أمل القرب
أوردة أغصان تشير إلى الهوى ... بكل مغانيه ، تباركت يا ربي(١)

وما أروع التوحد بين الشاعر الرقيق ووردة الشتاء التي يناجيها بقوله :

وقفت أناجيها وأبكي أمامها ... كلانا معنّى في الحياة كئيب
تطلّ ووجه الأرض أغبر باسر ... وترنو ووجه الأرض فيه قطوب
فلا النهر بسّام المحيّا أمامها ... ولا الطير في تلك الغصون لعوب
ولا الظل ممدود عليها كعهده ... ولا الروض فوّاح الأريج طروب
يمرّ بها عاتٍ من الجوّ صرصر ... يسائلها عن حالها فتجيب
(إذا ذهب القرن الذي أنت منهمو ... وخلفت في قرن فأنت غريب)(٢)

---

(١) الديوان الكبير ٣٥٤.
(٢) السابق ٣٣٩ ، وينظر شرح ديوان المتنبي للعكبري ٤٤/٢

والقصيدة تعد نموذجا لانصهار القديم والجديد وامتزاج الموروث من عطاء الشعراء القدامى بأحدث ما شهدته الحياة الأدبية من تيارات رومانسية رقيقة ، وحسبنا في الدلالة على ذلك هذا الخطاب الحاني وتلك المناجاة الراقية بين الشاعر ووردة الشتاء التي صادفت نفسا شاعرة فانبجست كل المعاني الرقيقة والعواطف الإنسانية النبيلة ، وما أروع التناسب بين الشاعرين (المتنبي وشاعر البراري) من جهة والوردة البائسة من جهة أخرى ، فالشعراء بعامة في غربة دائمة ، ووردة الشتاء أضحت غريبة بعد انقضاء الربيع وتصرم عهود الأنس والبهجة ، وأهم مما سبق وأقرب إلى الرؤية الإسلامية أن ما يشيع في تلك الأبيات وفي نظائرها من التعاطف الحميم والتجاوب الرقيق بين الشاعر والوردة وغيرها من مظاهر الطبيعة إنما يعد لونا من التراحم والتعاطف الذي هو جوهر الإسلام ولب الرسالة المحمدية .

ويقول شاعر البراري وقد استعاض بوصف الطبيعة واستجلاء محاسن الكون عن الغزل ووصف الحسان:

لا والذي رنّح الأغصان في حلل ... وفي حليّ من الأوراق والزهر
ما حركتني قدود الغيد مائلة ... بقدر ما حركتني أغصن الشجر
قد أثرت هذه في الطير واتفقت ... مع القدود على التأثير في البشر(١)

وفي موضع آخر يتكئ الشاعر في وصفه للورود على بعض القيم الإسلامية والتعاليم السمحة ملقنا البشر درساً في التعاطف والإخاء ، ومما قاله:

(١) الديوان الكبير ٤٢٠.

قد حفها الشوك محتدا ومحتدما ... فخلتها أملا مستشعر ألما
وما اقتنت شوكها يوماً لتجعله ... جندا كما زعمته الناس أو خدما
ولا لتجعل من أوراقها صحفاً ... تخط فيها ومن أشواكها قلما
وإنما هي أرحام قد اتصلت ... ووردة الروض ليست تقطع الرحما
لبت ولم يدعها داع وكم رجل ... أرحامه قد دعته فادّعى الصمما
رقيقة لو أجاب الله لي طلباً ... منها لقلت استحيلي في فمي كلما(١)

وما أجمل أن يتخذ الحديث عن الورود سبيلا إلى نشر تعاليم الدين وهدي الإسلام وتلك إحدى أمارات التميز والتفرد التي استأثر بها شاعر البراري ، فلئن اتخذ الخطباء والكتاب من أقلامهم دعاة إلى الخير وسبيلا إلى الهدى فلقد ذلل شاعرنا قوافيه لتنهض بهذه الرسالة فتبعث الناس على الخير وتسوقهم إلى الطاعة والهداية .

وفي (مأتم الليل) يقول مسبّحا ومناجياً :

سبحانك اللهم تبدع في ... كون يدل عليك تكوينه
هيأت يا رباه أربعة ... لليل حين مضى به حينه
فعلى نداه أن يغسله ... وعلى انبلاج الفجر تكفينه
وعلى الكواكب أن تشيعه ... وعلى طيور الدوح تأبينه(٢)

والمقطوعة على قصرها تعد برهانا على البراعة التصويرية والمقدرة البيانية ، فلقد صور الليل وقد آذنت ساعاته بانقضاء في صورة ميت يغسله الندى ويغشيه الفجر بأكفانه البيضاء وتشيعه جماعات من الكواكب وأسراب من النجوم، أما التأبين والرثاء فهو منوط بنوح الطيور وشدو البلابل ، وهي صورة كلية

(١) السابق ٤١٩.
(٢) الديوان الكبير ١٦٧

تآزرت فيها العناصر السمعية ونظائرها البصرية على استجلاء بعض مظاهر القدرة الإلهية في تقليب النور والظلام وتعاقب الليل والنهار.

ثانيا : الطبيعة العلوية

واستكمالا للصورة الرائعة التي رسمها شاعر البراري للطبيعة الريفية نراه يعرج على الطبيعة العلوية من نجوم لامعة وأقمار ساطعة وكواكب نيرات مستلهما قيم الإسلام وتعاليمه ومستجليا القدرة الإلهية في الإبداع والتصوير ، ففي إحدى قصائده التي اختار لها عنوان (أحب انفرادي) يقول متأملا في سفر الكون وكتاب الوجود :

أحب انفرادي لا شذوذا وإنما ... لأقرأ من سفر الوجود سطورا
ففي الأفق آيات وفي الروح مثلها ... يطالبنني أني أكون بصيرا
نجوم إذا جنّ الظلام تظنها ... ثغور عذارى يبتسمن سرورا
تزاحمن في طول السماء وعرضها ... كأسراب أطيار وردْن غديرا
كأن دموعي قد صعدن إلى السما ... فأصبح تعداد النجوم كثيرا
يبتن على سهد ليسمعن آهتي ... وينظرن كم أطوى الظلام زفيرا
ضواحك ممن لا يطول بكاؤه ... وممن مشى فوق التراب فخورا
سواخر ممن قد تناسى مصيره ... وبئس مصير الظالمين مصيرا(١)

والمتأمل في تلك الأبيات يجد نفسه أمام لوحة فنية رائعة أبدعتها ريشة رسام بارع فاقتدر أن يضفي عليها ألوانا من الجمال والسحر، فما يتراءى في صفحة السماء ليس نجوما وإنما هي ثغور عذبة لأسراب رقيقة من الفتيات الحسناوات ، وأعجب من ذلك ما نلحظه من التجاوب الرائع بين النجوم وسائر المخلوقين فتارة جذلى وأخرى باكية وتارة ساخرة ، ولا يخفى الأثر الإسلامي

(١) الديوان الكبير ١٦٧.

الذي يتجلى في براعة التأمل والقدرة على استنطاق مظاهر الطبيعة ، والاستجابة للدعوة القرآنية للنظر في الكون والتأمل في مرائي الوجود ، فضلا عن تزيين الأبيات بألوان من الاقتباس تارة والتناص تارة أخرى.

وفي مقطوعة بعنوان (القمر والخسوف) يقول معبرا عن استعلاء القدرة الإلهية على سائر المخلوقات مهما تناءت في علوّها وبالغت في تعاظمها :

زهـا على غـيره واختـال في صـلف ... وبـات يـأمر والأفـلاك تـأتمر
وغـرّه أن جـيش الـنجم يحرسـه ... وأنـه لـيس فيهـا غـيره قمـر
ولم يـزل آمنـا في الأفـق مبتسـما ... يصـبو لطلعتـه الوجـدان والنظـر
حتـى تغشـاه شـيء لـيس يعرفـه ... فقال من أنت؟ قال اخضع أنا القدر(١)

وفي وقت السحر تحلو المناجاة ويعذب الشدو وتنطلق الألسن بالذكر والتسبيح والدعاء والاستغفار:

يـا سَـحَر الأريـاف يـا سـاحري ... يـا شـاعرا يـوحي إلى الشـاعر
يـا قارئـا لـي بلسـان الشـواد ... ي في الربـى مـا جـال في خـاطري
يـا كاتبـا لـي بمـداد النـدى ... توصـية البـاطن للظـاهر
أحضـرتني فيـك وغيّبـتني ... تـأملا في قـدرة القـادر
حتـى عرفـت الله سـبحانه ... معرفـة المغيّـب الحاضـر
سـبحت لله الـذي قـد جـلا ... ك طـاهرا في ثوبـك الطـاهر
وصـغت مـن عـبيرك العـابر اسـ ... ـتغفارة لـذنبي العـابر(٢)

وفي قصيدته التي اختار لها عنوان (روعة السحر) يستجلي مزيدا من ملامح العظمة والجلال التي ينطوي عليها وقت السحر ، ومنها قوله :

---

(١) السابق ٣٢٢.
(٢) الديوان الكبير ٣٨٩.

اخلع لباس الكرى في ساعة السحر فإن فيها غذاء القلب والنظـــــر

صمت ، جلال ، جمال، روعة، صور من صادق السحر ضمت أروع العــبر

وهل ترى عبرة في الليل أبلـــغ من نوم الأنام وطول السهد بالقمـــر

تخالـه واعظـــا قـد بات ليلته يتلو على الكون ما في الأفق من خبر(١)

ويقول في قصيدة (الليل) مستبدلا الدعاء ولذة المناجاة بسائر الملاهي :

وذو تقى بات طول الليل منصـــــدعا من خشية الله منصـــــــــوبا كتمثال

يدعـــو الإلـــه ويرجـــوه ويذكـــره والطير تصغي له في دوحهـــــا العالي

مستأنســا بظـلام الليـل منصـــــرفا عـــن الملاهـــي وعـــن قيـــل وعـــن قـــال

الأنـــس مـــن ذاك لا في الكـــأس مترعـــة والعـــزّ في ذاك لا في الجـــاه والمـــال

والشاعر في مطولته يستعرض صنوفا من النماذج البشرية بين كئيب بسبب ثكل أو مرض أو فراق وبين مبتهج بما ظفر به من اللذائذ والمتع ، ولقـد راقـه منها ذاك التقي العابد الذي أنفق ليله مناجيا لربه متضرعا لمولاه ، ولا شـك أن الالتذاذ بالطاعة والأنس بالله يؤكدان أن نظرة الشاعر لليل أقـرب إلـى التوجـه الإسلامي منها إلى رؤية الرومانسيين

(١) السابق ٢٩٢

المبحث الرابع

إسلاميات متنوعة

من يطالع ديوان شاعر البراري يظفر بسياحة شعرية ممتعة حول قيم الإسلام وتعاليم الدين سواء من خلال التناول المباشر أو غير المباشر لهذه القيم الإيجابية وتلك التعليم السمحة ، وقد رأينا فيما سبق كيف اتخذ الشاعر من وصف الطبيعة منبراً هادياً لجموع البشر ومرآة تعكس مظاهر القدرة الإلهية فضلا عما نظمه في تمجيد الشخصية النبوية واستلهام البيان القرآني ، وتستوقفنا الصفحات التالية مع عدد من الفرائض الدينية والأركان الإسلامية التي خصص لها الشاعر جزأين من ديوانه الضخم كالشهادتين والصلاة والزكاة والصوم والحج ، بالإضافة إلى قيم الإيمان والجهاد والتوبة والاستقامة والصبر وصلة الرحم وبر الوالدين والوفاء ونصرة المظلوم والإقبال على القرآن ، بالإضافة إلى قصائده عن ذم البخل والكبر والوشاية ونكران الجميل إلى غير ذلك من سبل الدعوة المباشرة إلى طاعة الله ورسوله والتزود لما بعد الموت ، ولنأخذ مثلا مقطوعته التي نظمها عن الصلاة ، وفيها ينعى على بعض المصلين تشاغلهم عن إقامتها وعدم الإقبال عليها بالكلية:

مالي أقوم إلى الصلا ... ة وما معي إلا أقلّى
سل يا أقلّي أكثري ... سل أكثري لم لا يصلي
بعضي المصلي ليس يكـ ... ـفي وحده في مدّ ظلي
وسجود بعضي دون بعـ ... ـضي لا يؤهل للتخلي
يا كلي اسجد إن بعـ ... ـضي لا يقوم مقام كلي(١)

(١) الديوان الكبير ٤٥٩.

وقوله عن فريضة الحج داعيا إلى رد المظالم والحقوق :

ردّوا المظـالم للـــبريّـ ـة قبل حج البيـــت ردوا
مـال تجمّـع مـــن ربـــا هيهات ينفـــع منه رفد
أدّوا حقوق النـــاس قبـ ـل حقــوقـه يا قـوم أدوا
لا تذهبوا بعيـــوبكـم يشقى الحجاز بكم ونجد(١)

ويقول عن الصوم مصورا حال بعض الصائمين :

صـــمنا ولكن ما منحـ ـنا الصائم المسـكين عونا
صـمنا ولكن ما تركـ ـنا من طعام الفطـر لونا
صـــمنا ولكن ما مشينا فوق وجه الأرض هـونا(٢)

ويقول داعيا إلى الإقبال على قراءة القرآن والانتفـاع بهديـه والتمسـك بتعاليمه :

اقرأ كتاب الله بين خيامهـــم متطهرا واقرأه بين الناس
اقرأه فوّاح العبير وقل لهـــم هذا العبير يشم بالإحساس
اقرأه تبصرة لمن هو جـــاهل واقرأه تذكرة لمن هـو ناس
فلقد يتوب على القراءة مذنب ولقد يلين على القراءة قاس(٣)

ويقول عن صلة الرحم مستلهما حنوّ الأشواك على الورود وامتنان الورود لها :

---

(١) الديوان الكبير ١٣٨
(٢) السابق ٤٦٠
(٣) السابق ٢٦١

قد حفّها الشوك محتدّا ومحتدما فخلتهـا أملا مستشـــــعـرا ألما
وما اقتنت شوكهـا يومـا لتجعله جندا كما زعمته الناس أو خـــدما
ولا لتجعل من أوراقهـــا صحفا تخطّ فيها ومن أشواكهـــــا قلما
وإنما هي أرحـــام قـد اتصلت ووردة الروض ليست تقطع الرّحما
لبّت ولم يدعها داع وكـــم رجل أرحامه قد دعته فادّعى الصمما (١)

وللشاعر قصيدة تصلح أساسا لتربية البنات أتخير منها قوله مناجيا إحـدى بناته :

قد يعصم البنت تعليم ويرفعهـــا وقد يخرّبها من شاهق عـــــال
وفي الجهـالة موت للألى عطلـوا من حلية الجاه أو من حلية المـــال
إذًا إلى الدرس لكن وطّـدي أمـلي في أن تظلي على استحيائك الغـالي
أرضاك عمياء لكن لا أرضاك غازلة غير الكمـال الذي يرضاه أمثـالي
أرضاك عمياء لكن لا أرضاك ناسجة ما لا يلائـــم يا بنتـاه منـوالي
أرضاك عمياء لكن لا أرضاك قارئة ما قيل في القدّ أو في الخدّ ذي الخال
أرضاك عمياء لكن لا أرضاك دارسة دين الهوى دون تفصيل وإجمـال
أرضاك عمياء لكن لا أرضاك ساجعة سجع الحمـامة في تيه وإدلال(٢)

ويقول معبرا عن إعجابه بوفاء الصفصافة للغدير وذم نكران الجميل متكئـا على التضمين لبيت المتنبي المشهور :

تدلّت أعاليها اعترافا بفضله ومن علّم الأغصان أن تشكر اليدا

(١) السابق ٤١٩
(٢) الديوان الكبير ١٩٣

ألا إنها نعم المعلّم للـــــورى فأكثـرهم ينسى الجميـل تعمّدا

سقاها فجازته بفرط وفائهـا فهلّل إعجـابا بها ثمّ أنشـــــدا

إذا أنت أكرمت الكريم ملكتــه وإن أنت أكرمت اللئيم تمــردا (١)

ومن القصائد التي تتضمن عددا من الصفات الإيجابية النابعــة مــن قــيم الإسلام قصيدة (بعض ما يروقني) ومنها :

ويروقني زأر الفتـى في الحق كالأسد الهصـــــور

ويروقني ردّ المظـــا لم للضعيف المســـــتجير

ويروقني حفظ الجميـ ـل ولو تطول به الدهـــور

ويروقني مشي الغني بغير زهو أو غـرور...القصيدة(٢)

ويقول في ذم الكبر مستلهما أوصاف الزرع أيضا :

اخلع لباس الكبريا ابن العـود واخجل أمام تواضع العنقود

كرم الكروم سرى إلى عنقودها وسرى إلى دنياك لؤم العــود

والزرع كالإنسان يلبس دائمــا أخـلاق آبـاء له وجـــدود(٣)

ويقول عن ذم النفاق مستلهما صفات البرتقالة كعادته في إســقاط صــفات المظاهر الطبيعية على البشر :

وافت بمـا يكفي من التبيان وزكت لدى البصراء والعميان

---

(١) السابق ٢٧٥ وينظر: شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري تحقيق: مصــطفى الســقا وآخرين دار المعرفة بيروت ١٦٦/١

(٢) الديوان الكبير ١٣١

(٣) الديوان الكبير ٣٦٩

قالت لهم : لوني الذي أبديته هو والذي أخفيته سيان

يا من طلعت على الأنام صريحة أهل النفاق علاجهم أعياني

قولي لمن يبني الحياة منافقا لا خير في الباني ولا البنيان (١)

ويقول متوعدا الوشاة وذلك في مقطوعة بعنوان (سكين تتمنى) :

ويلي أؤوجد في الحيا ة لذبح عصفور وشاة

يا ليتني استعملت في تقطيع ألسنة الوشاة (٢)

وثمة ميدان آخر نذر له الشاعر نفسه وهو محاربة البدع والمنكرات والتصدي لأدعياء التصوف ورفض التبرك بالأضرحة والتوسل بالأولياء بحيث لا نكاد نجد له نظيرا في العصر الحديث اهتماما بهذه القضية وتفنيدا لما يكتنفها من مزاعم وأباطيل ، ومن روائع أبياته التي نظمها في هذا الإطار قوله:

ما القطب ما الخلفاء ما النقباء ما الغوث ما الأوتاد ما النجباء

ما هذه الأسماء ماذا خلفها لا شيء إلا أنها أسماء

السابقون مضوا وما فتنوا الورى بالترّهات لأنهم أمناء

عملوا بما علموا وما غرّوا وما اغـ ـتروا وما لحقت بهم خيلاء

واللاحقون مضوا على أهوائهم أرأيت ما فعلت بنا الأهواء

بدع بها بلغوا من الجهلاء ما بلغوا وأكثر من نرى جهلاء

بدع بها جمعوا من الأموال ما جمعوا ومجموع الهباء هباء (٣)

---

(١) السابق ٥٠١

(٢) السابق ٢٨٨

(٣) السابق ٤٨١.

ويقول أيضا:

يـا مستغيثا بالـدفين من الـورى ارجـع إلى الـدين القـويم الأكمـل
لا تسـتغث بـالميتين بـل اسـتغث بـالحي وهـو الله واعلـم واعمـل(١)

ولقد بلغ اهتمام الشاعر بهذه القضية مبلغا كبيرا دفعـه أن يـنظم قصـيدة كاملة واختار لها عنوان (مدد) وفيها يصب جام الغضب على طالبي العون مـن المخلوقين أحياء وأمواتا ، ولا يخفى ما يكتنف هذا المسلك من مزالـق عقديـة وانحرافات فكرية:

يـا طالبـا من دفين في الثرى مددا لـيس السـراب بمـرو ظامئـا أبـدا
كيـف اتجهـت إلى مـن مـات تسـأله سـل الـذي فضـله لا ينتهـي عـددا
إنـا وإيـاه أمـوات ويـا عجبـا لميـت يبتغـي مـن ميـت مـددا
اربـأ بـدينك أن تغشـاه غاشـية مـن الفسـاد وإلا ضـاع منـك سـدي
مـاذا تـرى في ولـيّ تسـتغيث بـه أواجـد أنـت غـير الله ملتحـدا؟
محمـد وهـو أعلـى الخلـق منزلـة لم يمتلـك للـورى ضـرا ولا رشـدا (٢)

وفي القصيدة التالية يخاطب أحمد البدوي على لسان أدعياء التصوف فيقول ساخرا:

تصرّف أيها البدوي تصـرف فأنت مفوّض فينا مصـرّف
تصرف في الأنام وأنت ميـت وفي الأقداريا بدوي تلطّـف
أينفع أو يضر الخلق خلـق؟ إذن لا شأن للخلّاق يعـرف
أللبدوي التصرف في البرايا؟ إذن فعبـادة البـدوي أنصـف
هو الإنسان مخلوق ضعيـف فمن يكل الأمور إليه أضعف
لماذا مات وهو مدير كـون ؟ أما كان البقا يا قوم ألطـف

(١) الديوان الكبير ٤٨٦.
(٢) السابق ٥١٨.

حديث لم يجئنا عـن رسـول ... ولم نقرأه في آيات مصحف
حديث خـرافـة قد زيّفـوه ... فسحقا للمزيّف والمزيّف
تعالى الله عنهـــا ترّهات ... يسميها الورى جهلا تصوّف(١)

ومن القضايا التي استحوذت على اهتمام شاعر البـراري قضـية حجـاب المرأة ، ولقد سلك كل سبيل يضمن لها العفة والوقار ، فلم يقتصر على ما نظمه من روائع القصائد وخوالد المقطوعات وإنما خاطب بذلك ولاة الأمـر وأعضـاء المجالس النيابية ، ومما نظمه في ذلك مقطوعة بعنوان : (القوارير) أرسل بها إلى الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف حينذاك فاستحقت إعجابه وإشادته ، ولقد قدم لها الشاعر بالآية الكريمة (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونسـاء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ...) (٢) ومما جاء فيها :

يا خزي مئذنة الحمى طالت وما ... قالت لليلى طوّلي الجلبابا
شدنا المآذن والقباب ولم نشـد ... ليلى فزدناها عمى وتبـابا
الدين يطلب أن نشيد نساءنـا ... لا أن نشيد مآذنا وقبـابا (٣)

ولقد بلغ من حرص الشاعر على هذه القضية أن نظم عددا مـن القصـائد وأرسل بها إلى بعض النواب يحثهم على سن القوانين التي تحفظ للمرأة وقارهـا وعفتها ، فنظم المقطوعة الآتية وأرسل بها إلى الأستاذ عبد الرؤف السـمنودي نائب بيلا :

أمامك الآن صوت ليس منبعثـا ... من جانب الطين بل من جانب الدين
ليلى مشت بيننا في الريف عاريةً ... أذىً على الدين في كل الميـادين
صرخت في وجهها وحدي وقلت لها ... إنّي معـاديك يا ليلى فعـاديني

(١) تأملات مع الحياة ٣٦٤
(٢) سورة الأحزاب الآية ٥٩
(٣) الديوان الكبير ٥٦٥

وهذه صرخة أخرى سيسمعهـــا (عبد الرؤف) ويبديهـــا ويبديني
طالب بتطويل أثواب النساء وقل دين الهدى عندما أفديه يفديني(١)

ويقول مخاطبا السيدة أمينة شكري نائبة الإسكندرية :

نادي بتطويل أثواب المها نادي ليلى تعرت فآذت شـاعر الوادي
صـادٍ ولا ريّ إلا تسترهـا فحققي رغبات الشاعر الصـادي
المرسلون مضوا لكن شرائعـهم فينـا وأرواحهـم منّا بمرصـاد
لا أرى ظبية تنأى بجانبهـا عنهم ، وتسلم من أشراك صيّـاد
" أمينة " نادي غير خـائفـة نادي بتطويل أثواب المها نادي(٢)

كما احتلت قضية الموت مكانا بارزا بين القضـايا التـي تناولهـا شـاعر البراري ونظم فيها عددا من القصائد التي يتجلى فيها وعيـه الـديني ورؤيتـه الإسلامية ، وحسبنا في الدلالة على ذلك قصيدة (الذاهبون) التـي يتبـع فيهـا الموتى في سيرهم نحو المصير المحتوم مستخلصا العبر والعظات ومتكئـا علـى براعته في التصوير :

ركبوا الفناء إلى البقاء وسـاروا ونأوا فلا خـبر ولا استفسار
بعداء لم نسمع بهم قربـاء يجـ ـمعنا وإياهـم حمى وجـوار
قرب وبعـد في صعيد واحـد ضدان بينهمـا العقول تحار
نزلـوا المقابر ثيبـات كلهـا وذنوبهم من حـولهم أبكار
فإذا عشيتهم تطول وهل لهـا إلا القيـامة وحـدها إبكار
صاموا وبطن الأرض مفطرة بهم لله هذا الصـوم والإفطار
لا جاههم عند البـلى جاه ولا جبـارهم تحت الثرى جبار

(١) السابق ٥٦٦.
(٢) الديوان الكبير ٥٦٧.

ساوى الثرى ما بينهم فكأنه وجه وهم في عارضيه عذار(١)

لقد نجح الشاعر أن يكسو أبياته المهابة والبراعة في وقت معا ، أما المهابة فلقد اكتسبتها الأبيات من جلال الموت وعظمة الخالق واقتداره على سائر المخلوقين ، وأما البراعة فترجع إلى قدرة الشاعر على تصوير المشهد المهيب كأنه رأي عين ، وليس أدل على ذلك من تصوير نعوش الموتى وهي نوع من الجمادات في صورة حية متحركة ، وتصوير الميت تحيط به الذنوب في صورة توحي بتكاثرها وسطوتها (أبكار) بينما الميت في حال من الضعف والوهن وهذا ما توحي به كلمات (ثيبات) ، ثم يلقن المتعاظمين درسا موجعا يذكرهم بالمصير المحتوم ، ولقد ناسب حديث الموت أن يحشد الشاعر ألوانا من المحسنات البديعية لا سيما الطباق الذي يظهرنا على المفارقة الوجودية ، ولنأخذ مثلا (البقاء والفناء) ، (بعداء وقرباء) ، (ثيبات وأبكار) ، (صاموا ومفطرة) وكلها تعبر عن فلسفة الموت والحياة تلك القضية التي حيرت الألباب وأذهلت العقول .

(١) السابق ٣٢٥.

خاتمة بأهم نتائج البحث

أثمرت رحلة البحث عن ملامح الأدب الإسلامي في ديوان الشعر الحديث عن كنز ثمين وتجربة جديرة بالإشادة والتنويه ألا وهي تجربة الشاعر محمد السيد شحاته الملقب بشاعر البراري ، ولقد اجتهد الباحث في التقاط معالم الرؤية الإسلامية لدي الشاعر دون اقتصار على الشعر الديني المباشر أو الوعظ الخطابي المألوف أو التناول التقليدي للقيم الإسلامية.

جاء استلهام البيان القرآني في طليعة الظواهر التي تجلت في ديوان الشاعر والتي تعد من أظهر البراهين على التوجه الإسلامي لدى الشعراء بعامة ، وأهم من ذلك أن استلهام الشاعر للقرآن الكريم يعبر عن لون من التأثر الإيجابي والتمثل الواعي والاقتداء البارع بقيمه وتعاليمه ، فضلا عن نجاح الشاعر ــ في الأعم الأغلب من النماذج ــ في تحقيق الانسجام بين النص المقتبس وسياق الأبيات سواء أكان اقتباسا لنص قرآني أو للفظة مفردة أو لعدد من المصاحبات اللفظية أو تناصا مع الصياغة القرآنية ، وسواء ما ورد في إطار الوصف أو التأمل أو الغزل أو غيرها من الموضوعات الشعرية ، كما نجح الشاعر في التنبيه على عظمة القرآن الكريم وحتمية أن يوضع نصب أعين البشر في كل زمان ومكان ليسيروا على نهجه ويمتثلوا أوامره ويجتنبوا نواهيه فتلك أعظم أسباب الرشاد وأولى ضمانات السعادة في الدنيا والآخرة .

أما استدعاء الشاعر للشخصية النبوية فقد سلك فيه مسلكا فريدا ، حيث نظم ثماني وعشرين قصيدة متبعا فيها ترتيب الحروف الهجائية ، واختار لها عنوانا موحدا (إلى رسول الله) ولقد أبان هذا التناول الفريد عن رغبة الشاعر في التجديد وعدم الالتزام بالنهج التقليدي المتبع لدى شعراء المديح النبوي قديما وحديثا ، ولقد اتخذ الشاعر من هذا المسلك الإيماني المحبب ملاذا من هموم ومهربا من أحزانه وآلامه بحيث أمكن القول بأن استدعاء الشخصية النبوية في

شعره يعد معادلا موضوعيا وبديلا إسلاميا لهروب الرومانسيين إلى الحب والتوحد مع الطبيعة .

ومن معالم الرؤية الإسلامية التي تجلت في أعداد كبيرة من قصائد الشاعر ومقطوعاته : التأمل في مجالي الكون ومظاهر الطبيعة استجابة للدعوة القرآنية وتلبية للأمر الإلهي ، وقد برع الشاعر في هذا الإطار براعة لا حدّ لها ، وحسبنا دليلا على ذلك أنه ارتضى لنفسه لقب (شاعر البراري) وهو لقب يدل على الانتماء للريف والارتباط بالطبيعة .

لم يغفل الشاعر التناول المباشر للقيم الإسلامية فقد نظم عددا من القصائد والمقطوعات التي تتناول الفرائض الدينية والقيم الإسلامية وتهتم بحجاب المرأة وتحارب البدع وتتصدى لأدعياء التصوف مما مهد للحكم بأن شاعر البراري يأتي في مقدمة شعراء العصر الحديث اهتماما بهذه القضية الشائكة وتفنيدا لم يكتنفها من مزالق وانحرافات.

وهكذا ترسو سفينة البحث عن معالم الرؤية الإسلامية لدى شاعر البراري قريرة العين جزلى بهذا العطاء الوفير والترجمة الصادقة للقيم الإسلامية والتعاليم الدينية التي هيمنت على كثير من قصائده وأشعاره وهذا أقصى ما يناط بالشعر الديني والأدب الإسلامي .

وفي الختام أسأل الله أن يجعل هذا العمل ــ وقد نجز في رحاب الحرمين الشريفين ــ حاديا إلى الخير ووازعا إلى التأسي بالهدي النبوي والتعاليم الإسلامية ، والحمد لله أولا وآخرا وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم

٢- أثر القرآن في شعر العصر المملوكي د. أنس الفقي دار بلال ٢٠٠٠

٣- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق د. صابر عبد الدايم مطبعة بلال

٤- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق د. علي صبح ١٩٨٧م ج ١

٥- الأدب الإسلامي ضرورة د. أحمد محمد على دار الصحوة ط الأولى

٦- الأدب الإسلامي الفكرة والتطبيق للدكتور حلمي محمد القاعود دار النشر الدولي ٢٠٠٧

٧- الاقتباس من القران الكريم في الشعر العربي عبد الهادي الفكيكي دار النمير سوريا ط أولى ١٩٩٦

٨- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي تحقيق : محمد عبد الرحمن المرعشلي دار إحياء التراث بيروت ط الأولى – ١٤١٨ ، الجزء الثالث

٩- تفسير القرآن العظيم لابن كثير تحقيق محمد حسين شمس الدين ، دار الكتب العلمية بيروت ط : الأولى ١٤١٩

١٠- التفسير الوسيط د. وهبة الزحيلي دار الفكر دمشق ١٧٩٦/٢

١١- جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي ت علي محمد البجادي نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع ٦٢٣/١

١٢- الديوان الكبير لشاعر البراري تقديم الدكتور إسماعيل الصيفي دار ذات السلاسل الكويت ١٩٨٦

١٣- ديوان البوصيري ت محمد سيد كيلاني م مصطفى البابي الحلبي ط الثانية القاهرة ١٩٧٣

١٤- ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس تحقيق محمد حسين ١٩٥٠

١٥- ديوان تأملات مع الحياة لشاعر البراري محمد السيد شحاتة تقديم د. محمد مصطفى أبوشوارب الكويت ٢٠١٣

١٦- الرومانتيكية د. محمد غنيمي هلال نهضة مصر

١٧- شرح ديوان حسان بن ثابت الأنصاري لعبد الرحمن البرقوقي المكتبة التجارية ١٩٢٩

١٨- شرح ديوان المتنبي لأبي البقاء العكبري تحقيق : مصطفى السقا وآخرين دار المعرفة بيروت ١

١٩- شعر المديح النبوي في الادب العربي د . جميل حمداوي مدونة ديوان العرب الدراسات المحكمة مقال منشور بتاريخ ٨ يوليو ٢٠٠٧

٢٠- صورة القرية في الشعر المصري بين المثالية والواقعية رسالة للدكتور ماهر فؤاد الجبالي مخطوطة / لغة عربية إيتاي البارود

٢١- الغربة في شعر الشافعي د. صفوت زيد م التركي بطنطا ١٩٩٧

٢٢- قصيدة المديح النبوي د. أسامة البحيري نادي تراث الإمارات

٢٣- الكشف والبيان عن تفسير القرآن أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي ت الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق : الأستاذ نظير الساعدي دار إحياء التراث العربي بيروت ط الأولى ٢٠٠٢/ ج ٨

٢٤- مختصر تفسير ابن كثير تحقيق محمد علي الصابوني المكتبة العصرية ٢٠١٤ الجزء الثالث

٢٥- معجم البابطين لشعراء العربية ١٦/ ٢٠٠٩

٢٦- المدائح النبوي في الأدب العربي زكي مبارك الهيئة العامة لقصور الثقافة ط أولى ٢٠٠٣

٢٧- محمد ﷺ في الشعر الحديث، دار الوفاء ط الأولي ١٩٨٧

٢٨- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد د. عبد الرحمن رأفت الباشا دار الأدب الإسلامي ٢٠٠٨

الفهـــــرس

م	الموضوع	رقم الصفحة
١	توطئة	٤٥٤٣
٢	المبحث الأول : استلهام البيان القرآني	٤٥٤٥
٣	المبحث الثاني : استدعاء الشخصية النبوية	٤٥٦١
٤	المبحث الثالث : التأمل في مجالي الكون ومظاهر الطبيعة	٤٥٨٢
٥	المبحث الرابع : إسلاميات متنوعة	٤٥٩٨
٦	خاتمة بأهم نتائج البحث	٤٦٠٧
٧	المصادر والمراجع	٤٦٠٩
٨	الفهرس	٤٦١٢